الأب فاضل سيدارُوس

خواطر في الفقر الاختياري

الحياة الروحية

دار المشرق
بيروت

coptic-books.blogspot.com

خواطر في الفقر الاختياري

coptic-books.blogspot.com

طُبع هذا الكتاب بمساهمة عائلة جرجي نعمة الله عقّاد

coptic-books.blogspot.com

الأب فاضل
سيداروس

خواطر في الفقر الاختياري

الحياة الروحية

دار المشرق
بيروت

coptic-books.blogspot.com

لا مانع من طبعه

بولس دحدح
النائب الرسوليّ للّاتين في لبنان
بيروت، في ٨/٣/٢٠٠٠

جميع الحقوق محفوظة، طبعة أولى ٢٠٠١
دار المشرق ش م م،
ص.ب. ٠٩٤٦ - ١١
رياض الصلح، بيروت ٢٠٦٠ ١١٠٧
لبنان

ISBN 2-7214-4940-0

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة**
الجسر الواطي - سن الفيل
ص.ب. ٥٥٢٠٦، بيروت - لبنان
تلفون: ٤٩٢١١٢ - ٥/٤/٤٨٥٧٩٣ (٠١)
فاكس: ٤٨٥٧٩٦ (٠١)
Email: libor@cyberia.net.lb

coptic-books.blogspot.com

المُقدِّمة

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

يتميّز نذر الفقر الاختياريّ **بثلاثة أقطاب** متكاملة، يستدعي كلٌّ منها القطبين الآخريْن: شخص يسوع المسيح، شخص الفقير، شخص الناذر نفسه.

فهناك **الدافع** الذي يحثُّ الناذر على أن ينذر، وهو **الاقتداء بيسوع المسيح الفقير**. وهذا ما يمكننا وصفه بأنّه **البُعد الكهنوتيُّ** الذي يتميّز به النذر. فسندرسه أوّلًا متسائلين: لماذا اختار يسوع المسيح الفقر في حياته؟ ويظهر لنا هدفٌ - وهو الاهتمام بالفقراء - وشرطٌ - وهو التحرُّر -.

ثمّ نبحث عن **الهدف** الذي يقصده الناذر من نذره - اقتداءً بالمسيح - وهو **الاهتمام بالفقراء**. وهذا هو **البُعد الملَكيُّ** الكامن في النذر.

وفي آخر الأمر، نوضّح **الشرط** الضروريّ لبلوغ الناذرِ البُعدَ السابق - اقتداءً بالمسيح - وهو **التحرُّر الذاتيّ** والتجرُّد ممّا هو ليس الله. وهذا هو **البُعد النبويُّ** الخاصُّ بالنذر.

ونُضيف فصلًا يتعلّق **بالفقر في الرهبانيّة اليسوعيّة**، نظرًا إلى انتماء المُؤلِّف إليها.

تلك هي الأقسام الأربعة التي سنُعالجها[1].

---

(١) لقد سبق أن نشرنا في سلسلة «الحياة الروحيّة» الصادرة عن دار المشرق - بيروت: **خواطر في التبتُّل المكرّس** - ٢٠٠١ **خواطر في الطاعة الرهبانيّة** - ١٩٩٩. **هويّة الحياة الرهبانيّة** - ط٢، ١٩٩٦.

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

١ - الدافع: الاقتداء بيسوع المسيح الفقير

- البُعد الكهنوتيّ -

coptic-books.blogspot.com

إنّ نذر الفقر مُبرِّرُه الأوّل والأخير ودافعُه الأساسيُّ والجوهريُّ إنّما هو **الاقتداء بشخص يسوع المسيح**، شأنه شأن الحياة الرهبانيّة بوجه عامٍّ والنذور الرهبانيّة بوجه خاصّ. فلأنّ يسوع اختار الفقر وعاشه، بل ولأنّ الابن الأزليّ في أزليّته وفي داخل العلاقات الثالوثيّة هو فقير، فالراهب يختار بمحض حرّيّته أن يتمثّل به فقيرًا. فسنبحث إذًا في وجهي المسيح **الأزليّ والزمنيّ**؛ ومن خلال هاتين الخطوتين، سنستشفُّ ما في نذر الفقر من **بُعد كهنوتيّ**.

يسوع الناصريُّ الفقير

إذا ألقينا نظرة شاملة إلى حياة يسوع في مُجمل مراحلها ومناسباتها، من المهد إلى اللحد، وجدنا أنّها تتّسم **بالفقر الاختياريّ** على أصعدة مختلفة، نذكر منها:

الفقر المادّيّ

شاءت الظروف أن **يولد** يسوع في مِزود (لو ٢/ ٧). وعندما **قدّمه** والداه لله، قرّبا تقدمة الفقراء (لو ٢/ ٢٥)، وقد عاش فقيرًا في **الناصرة**، كما كان أهل الناصرة يعيشون الفقر والحياة البسيطة، حتّى إنّ معاصريه اعتبروه ابن يوسف النجّار (لو ٤/ ٢٢). وفي أثناء **رسالته العلنيّة**، ساعدته بعض النساء بأموالهنّ (لو ٨/ ٣). ولقد صوّر يوحنّا قمّة هذا الفقر حتّى وصفه مُعلّقًا على **الصليب**، وقد اقتسم الجنود ثيابه (يو ١٩/ ٢٣-٢٤)...

coptic-books.blogspot.com

فإذا جمعنا هذه المشاهد كلّها وغيرها، استنتجنا أنّ يسوع قد صمّم النيّة فعلًا على أن يعيش فقيرًا، فكان الفقر بمثابة **اختيار** حرٍّ قصدَه في حياته.

الفقر المعنويّ

وقد ترجم يسوع فقره المادّيّ هذا **بأساليب حياتيّة معنويّة** مختلفة، نذكر منها أنّه وُلد في مذود، لعدم وجود **مكان له** في المضافة (لو ٢/ ٧). وذهب به التضامن إلى أنّه، منذ بداية حياته، شارك **مصيرَ شعبه في الهرب** من أعدائه، إذ رحل إلى مصر ليهرب من هيرودس، ثمّ عاد إلى أرضه (متّى ٢/ ١٣-١٥، ١٩-٢٣). وإنّه قد **نما في الحكمة** (لو ٢/ ٤٠)، أي أنّه تعلّم مهنته وأتقنها، وتعلّم الحياة المشتركة والعلاقات الاجتماعيّة...، شأنه شأن جميع مواطنيه. فلا نتصوّر أنّ العائلة المقدّسة كانت تعيش على هامش مجتمعها، بل كانت تشاركه في أفراحه وأتراحه، حتّى إنّ يسوع قد **تعلّم أن يكون إنسانًا** بكلّ معنى الكلمة طيلة ثلاثين عامًا، فكان الإله الكامل والإنسان الكامل.

وعندما استهلّ رسالته العلنيّة، عبّر عن أُبوّة الله وملكوت الله، وعن الحياة الاجتماعيّة والمهنيّة والعلاقات الشخصيّة والجماعيّة...، **بتعابير بشريّة** بسيطة مُقتبسة من **الحياة البشريّة** اليوميّة، وقد اختبرها طيلة ثلاثين عامًا.

وظهر فقره المعنويُّ أيضًا في أنّه كان **يطلب من البشر على** مثال الفقراء الذين يستعطون: الماء ليشرب (يو ٤/ ١٩، ١٩/ ٢٨)، والاستضافة (لو ١٩/ ٥، رؤ ٣/ ٢٠)، والاتّباع (<إذا أردتَ...>: مر ٨/ ٣٤، متّى ١٩/ ٢١)... وكم من مرّة اختبر **عدم تلبية طلبه**، أو الفشل، أو الخزي، شأنه شأن أيِّ فقير (مع

coptic-books.blogspot.com

الشابّ الغنيّ: مر ١٠/١٧-٢٢، ومع شعبه: لو ١٣/٣٤، ومع تلاميذه المُقرّبين إليه: متّى ٢٦/٣٦-٤٦...).

وظهر فقره المعنويُّ كذلك في أنّه **كرّس وقته كاملًا للآخرين**. فيُصوِّره مرقس تصويرًا واقعيًّا عندما يصفه وهو لا يستطع أن يتناول طعامًا بسبب كثرة الازدحام في البيت، حتّى قال ذووه إنّه ضائع الرشد (مر ٣/ ٢٠-٢١)، أو وهو نائم على وسادة من شدّة الإرهاق (مر ٤/ ٣٨)... وكانت خدمته تتّسم **بالحركيّة الكاملة**، فكان يجول من مكان إلى آخر يصنع الخير (رسل ١٠/ ٣٨)، حتّى لم يكن له مكان يضع عليه رأسه (لو ٩/ ٥٨)، ولم تستطع الجموع أن تحصره في مكان واحد، فكانت تبحث عنه في كلِّ مكان (مر ١/ ٣٥-٣٩)... فهو، الربّ، **خادم البشر** (لو ٢٢/ ٢٧).

وظلّت **حياته العلنيّة كلّها مُهدّدة** بسبب مُعارضيه (لو ٤/ ٢٨-٣٠)، فعاش **بدون ضمان بشريّ**، تحت رحمة الآخرين، ولا سيّما عظماء هذا العالم، منذ لحظات حياته الأرضيّة الأُولى (لو ٢/ ١-٥) وحتّى نهايتها في محاكماتهم إيّاه (لو ٢٢/ ٦٣-٢٣/ ٢٥)، واضعًا ثقته الكاملة في الآب (لو ١٢/ ٢٢-٣٤) كما سنراه في فقره الروحيّ.

هذا هو **الفقر المعنويُّ** الذي عاشه يسوع بل واختاره بمحض حرِّيّته.

الفقر الروحيّ

تلمّسنا ممّا سبق أنّ الفقر المادّيّ والمعنويّ يصحبه فقر على صعيد آخر قد عبّر عنه خيرَ تعبير نشيدٌ مسيحيٌّ قديم كانت تُنشده الجماعة المسيحيّة الأُولى:

< هو في صورة الله

coptic-books.blogspot.com

لم يُعِدّ مساواته لله غنيمة
بل **أفرغ ذاته**
مُتّخذًا صورة العبد
وصار على مثال البشر
وظهر في هيئة إنسان
وأطاع حتّى الموت والموت على الصليب> (فل ٢/ ٦-٧).

وعليه، فلم يكن محور حياة يسوع شخصَه ولا مشيئته - وقد أخلى ذاته وتجرّد منها كاملًا - بل مشيئة الآب القدُّوسة؛ وهذه هي قمّة **الفقر الروحيّ**. فلم يبحث البتّة عن مشيئته، بل عن **مشيئته الآب** وهي طعامه (يو ٥/ ٣٠، ٦/ ٣٩)؛ ولم **يفعل** شيئًا من عنده، بل كلّ شيء من عند الآب (يو ٥/ ٣٠ و١٩، ٨/ ٢٨)؛ ولم **يقل** شيئًا من عنده، بل كلّ شيء من عند الآب (يو ٧/ ١٦، ١٢/ ٤٩)؛ ولم **يعرف** توقيت <ساعته> ولم يُحدِّدها، بل تقبّلها من يد الآب؛ ولم يبحث عن أيِّ **مجد** شخصيّ، بل عن مجد الآب (يو ٨/ ٥٠، ٧/ ١٨)...

تلك بعض سمات فقره الروحيّ. هذا وقد خصّ له تطويبة، وقد اختبره قبل أن يعلِّمه:

<طوبى لفقراء الروح، فإنّهم أبناء الله يُدعون>
(متّى ٥/ ٢).

فهو، الابن، قد عاش الفقر الروحيّ الكامل، ممّا يتيح لأولاد الآب أن يعيشوه مِثله، فيُدعَون أبناء الآب.

وعليه، فإنّ إفراغ الذات والفقر الروحيّ شيء واحد يُعبِّر عن عزم يسوع على أن يكون فقيرًا إلى أقصى الحدود، حتّى طاعة الآب التي أدّت به إلى الموت مصلوبًا.

coptic-books.blogspot.com

الفقر الأغابي

ذهب الفقر بيسوع إلى حدِّ التضامن مع الفقراء **وحُبِّهم حبًّا تفضيليًّا**، لأنّ الله إله الفقراء والمساكين، ذلك لأنّ الفقر لم يقصده الله قطّ؛ ولذلك فهو يتقرّب إليهم، بدافع حبِّه، ليُحرِّرهم من فقرهم. وقد حقّق يسوع كلام الكتب إذ

<وزّع وأعطى المساكين، فبِرُّه للأبد> (مز ١١٢/٩، وارد في ٢ قور ٩/٩).

بل إنّه أوضح أنّ ملكوت الله يرثه الفقراء لا الأغنياء (مر ١٠/ ٢٤-٢٧)، وخصّص لهم تطويبات:

<طوبى لكم أيُّها الفقراء. . .أيُّها الجائعون. . . أيُّها الباكون. . .> (لو ٦/ ٢٠-٢٢).

وحتّى عندما كان يؤاكل الأغنياء، كان يقف إلى جانب الفقراء. وعليه، فقد جعل من الفقراء قدوة يُقتدى بهم - أمرهم أمر الأطفال - ورفع من شأنهم فوق أيِّ اعتبار بشريٍّ لا يُقدِّر الأشخاص حقّ تقدير. وهذا الحبّ التفضيليّ هو **حبٌّ مجّانيّ**، شأنه شأن الخلق والاختيار والعهد، والتجسُّد والخلاص. . . ؛ فلا مبرِّر له إلاّ الحبّ نفسه، وهو دائمًا عند الله حبٌّ مجّانيٌّ لا يأخذ بعين الاعتبار استحقاق الإنسان.

وكان بوسعه أن يحرِّر الفقراء من دون أن يكون هو فقيرًا - كما كان بوسعه أن يخلِّص البشر من دون أن يتجسّد ومن دون أن يطيع حتّى الموت على الصليب - ولكنّ حبّه ذهب به إلى أن اختار أن يصبح **إنسانًا فقيرًا مطيعًا**.

وكان **مِعطاء** بلا حساب ولا حدود:

<مِن ملئه نلنا **نعمة على نعمة**> (يو ١/١٦).

coptic-books.blogspot.com

<يَهب **الروحَ** بغير حساب> (يو ٣/ ٣٤).

وعليه، فإنّه افتقر **ليُغنينا**:

<افتقر لأجلكم، وهو الغنيّ، لتغتنوا بفقره>
(٢ قور ٨/ ٩).

الخلاصة

ميّز تحليلنا **أربعة أوجه متكاملة من الفقر** الذي عاشه يسوع. فبدأنا بالفقر **الخارجيّ** - ألا وهو الفقر المادّيّ - **لنستبطنه** - بالفقر المعنويّ - **ولنُروحنه** - بالفقر الروحيّ - فنصل إلى **قِمّته** - بالفقر المُحبّ -. وبالتالي، فهناك **تدرُّج** في مفهومنا للفقر عمومًا والفقر الرهبانيّ خصوصًا، سنجده في مراحل أخرى من تحليلنا.

الابن الأزليُّ الفقير

ممّا يستوقف الانتباه، بل والإعجاب، أنّ حقيقة يسوع المزدوجة - الإلهيّة والإنسانيّة - جعلته يعيش هذا **الفقر البشريّ** - بمختلف أصعدته -، ويعيش في آن واحد **بُنوّته الإلهيّة** وربوبيّته الملكيّة -<أنا هو> (يو ٨/ ٥٨).

<يسوع الناصريُّ ملك اليهود> (يو ١٩/ ١٩) -.

وقد عاش ذلك في **مفارقة** جمعت بين هاتين الحقيقتين. فيسوع الفقير هو الملك والربُّ والابن.

إذا نال الفقرُ هذا القدر من الأهمّيّة في حياة يسوع الناسوتيّة، أفلا يعود السبب إلى أنّه **فقير في كينونته الإلهيّة**؟ أوليس **الفقر أعظم موقف بشريٍّ يكشف لنا طبيعة الله الحقيقيّة**؟ أوليس **إلهنا فقيرًا** في جوهره؟ هذا ما نبغي استجلاءه الآن.

coptic-books.blogspot.com

فقر الأصل

عندما يقول يوحنّا إنّ يسوع

<خرج من الله> (يو ١٣/ ٣)

وعندما نُقرُّ نحن في قانون الإيمان بأنّ الابن «مولود من الآب»، فإنّنا نعترف بأنّه **يقتبل ذاته من آخر**، من الآب لا من ذاته. ففي ذلك فقر، بل الفقر المطلق. وهذا تمامًا ما رفضه الإنسان، عندما أغوته الحيّة بأن يكون هو كالإله، ولا أن يقبل وضعه مخلوقًا عن يد غيره.

وعندما يقول الكتاب مرارًا إنّ

<به (أي بالمسيح) كان كلُّ شيء> (يو ١/ ٣).

<فيه خُلق كلُّ شيء... كلُّ شيء خُلق به> (قول ١/ ١٦)...

ولا يقول أبدًا إنّه «خَلق كلّ شيء»، فإنّما يقصد بذلك أنّ الآب هو الخالق (وصيغة المجهول تدلّ على ذلك)، غير أنّه **يُشرك ابنَه في الخلق**. وكذلك الأمر عندما يُخاطب يسوع أباه فيقول له:

<الذين **وهبتَهم لي**> (يو ١٧/ ٦//).

فهو يرى هكذا أنّ كلّ شيء **هبة من الآب**. فالابن الأزليُّ يقتبل كلّ شيء من الآب؛ إنّه حقًّا، في صميم جوهره وكيانه وشخصه، **اقتبال**.

فقر التبادل

ولا يرى الابنُ المتجسّد أنّ البشر <**غنيمة**> له (فل ٢/ ٧)؛ فالغنيمة، في المفهوم اليونانيّ، هي **الاحتفاظ بالشيء**، أو حقُّ التصرُّف فيه. فلأنّ الآب يهب البشر لابنه، فإنّ الابن يقتبلهم منه **ويُعيدهم إليه**، من دون أن يحتفظ بهم:

<كلُّ ما هو لي فهو لك> (يو ١٧/ ١٠).

ونجد في ذلك وجهًا من وجوه الفقر الحقيقيّ، ولا سيّما في

coptic-books.blogspot.com

نذر الفقر، لأنّ نزعة الإنسان الدفينة هي، على نقيض ذلك، **حبُّ الامتلاك والاحتفاظ للذات**، من دون **التبادل مع الآخر**. فنذر الفقر يُقاوم ذلك، كما سنراه لاحقًا.

الفقر في داخل الثالوث

إنّ ما رأيناه من خصائص فقر الابن يقال في الآب والروح أيضًا.

فإنّ **الآب فقير** إذ هو **عطاء كامل**، فيلد الابنَ، ويبثق الروحَ، ويهب للابن أن يخلق معه، ويهبه للبشر ويهبهم له... **فلا يحتفظ بشيء لنفسه**، بل يمنح ابنه كلّ شيء، ويُشارك البشرَ في كلِّ شيء في ابنه وفي روحه.

والروح القدس أيضًا فقير، بل في قمّة الفقر - إن جاز هذا التعبير - فلا **اسم** له، بل هو روح الآب والابن؛ وهو **علاقة** الآب بالابن، فلا تُحدَّد ملامح **شخصيّته** إلّا في علاقته بهما؛ كما أنّه يضع البشر في علاقة بالآب والابن وفي ما بينهم، فلا **يجذب** أحدًا إلى شخصه، بل إلى غيره.

الخلاصة

إنّ **فقر يسوع الناصريّ** قد كشف **فقر الثالوث**. وإنّ ما عاشه على وجه الأرض كان صورة إنسانيّة للجوهر الإلهيّ، ألا وهو الفقر. فليس الفقر، بهذا المعنى، حادثًا عرضيًّا تعرّض له يسوع صُدفةً في أيّام حياته الأرضيّة، بل كان **تعبيرًا بشريًّا عن الكينونة الإلهيّة**. وعليه، فقد اختاره كنمط حياتيّ في أثناء ثلاث وثلاثين سنة، لأنّه نمط كيانيّ أزليّ[1].

---

(١) للمزيد من الاستفسار عن خُصوصيّة كلِّ أقنوم من الأقانيم الثلاثة، راجع=

coptic-books.blogspot.com

الفقر وبُعده الكهنوتيّ

ما المقصود بالبُعد **الكهنوتيّ** في ما نحن بصدده؟

إنّ الكاهن يُقدِّم **الذبيحة** لله ويرفعها إليه مع **صلوات** الشعب. ولقد استشفّينا من كلِّ ما سبق ما في الفقر من **عطاء وبذل**، ومن **تبادل ومشاركة**، ومن **إفراغ وتضحية**؛ وهذه هي الذبيحة الحقيقيّة والوحيدة التي يقبلها الله، لأنّها تُعبِّر عن كينونته وجوهره. فيسوع الناصريُّ قد عاش ذلك منذ تجسُّده وحتّى موته فقيامته، بل وفي أزليّة الأقانيم الثلاثة، واستحقّ إذًا أن يُدعى كاهنًا، بل **ورئيس الكهنة**، إذ إنّه **يُشرك في كهنوته كنيستَه** لتصبح على مثاله. فاقتداءً به، هي **العذراء الفقيرة** التي تقتبل قداستها وعذراويّتها وغِناها منه ومن روحه ومن أبيه؛ وفي ذلك يكمن فقرها الحقيقيّ. واقتداءً به، فهي **الأمُّ الفقيرة** التي لا تحتفظ لنفسها بما نالته منه مجّانًا، بل تهبه للبشر ولا سيّما للفقراء الذين يُجرِّدونها ويُفرغونها ممّا تمتلكه، بل ويدفعونها إلى أن تهبهم كنزها الحقيقيّ، ألا وهو شخص يسوع المسيح نفسه.

وما يقال في الكنيسة يسعى لأن يعيشه مَن اختارهم المسيح ودعاهم، أي **الرهبان**. فإنّهم للمسيحيِّين وللعالم كلِّه **علامةُ** يسوع المسيح الفقير والكنيسة الفقيرة. وتظهر **مريم** نموذج الأمِّ العذراء الفقيرة.

وبالتالي، فإنّ **نذر الفقر** يندرج في هذا **المنطق الكهنوتيّ**، من حيث اختيار ما اختاره يسوع المسيح مطلقًا، وبالأساليب الجذريّة التي اختارها. فمَن نذرَ الفقر، يقدِّم ذاته كلّها، بروح استعداديّة

=المُقاربات ٢ و٣ و٤ من كتابنا: **سرُّ الله الثالوث - الأحد** - سلسلة «دراسات لاهوتيّة» - دار المشرق - بيروت ط٣، ٢٠٠٠.

coptic-books.blogspot.com

كاملة، **للاقتداء بيسوع المسيح الفقير** أزليًّا وزمنيًّا. فإنّ هذا الاقتداء **دافعُ الراهب وهاجسُه** في نذره نذرَ الفقر الاختياريّ، وفي ممارسته الفقر كنمط حياتيّ مُستديم. فلِشدّة **حبِّه للمسيح**، يختار، بمحض حرِّيّته، ما اختاره المسيح من **نمط حياتيٍّ** ومن **أساليب حياتيّة** ومن **خِيارات حياتيّة**، إذ إنّ الحبّ الحقيقيّ هو **حبُّ التماثل مع الحبيب** والتطابق معه. فلولا هذا الحبِّ التطابقيّ، لما كان لنذر الفقر من معنى، ولما استحقّ هذا النذر أن يُنذر.

وتطبيقًا لذلك، يتساءل الراهب كيف يقتدي بالمسيح الفقير. فهناك صعيدان متكاملان: أحدهما خاصٌّ **بحبِّ المسيح للفقراء** هدفًا لفقره، وهذا ما نراه في الفصل القادم؛ وثانيهما متعلّق **بتحرُّره من المادِّيّات** شرطًا لبلوغ هدفه، وهذا ما نراه في الفصل اللاحق.

coptic-books.blogspot.com

٢ - الهدف: الاهتمام بالفقراء

- البُعد المَلكيّ -

coptic-books.blogspot.com

يفهم بعض الناس نذر الفقر على أنّه يستهدف الفقر من أجل الفقر، مع أنّ هدفه واضح من خلال ما يُظهره **الكتاب المقدّس**، وهو الاهتمام بالفقير؛ فهذا ما سنُبيِّنه أوّلًا. ثمّ سنُظهر **مختلف أوجُه هذا الاهتمام**. وأخيرًا سنشرح معنى **البُعد الملكيّ** الكامن في نذر الفقر.

الفقراء في الكتاب المقدّس

يُولي الكتاب المقدّس في عهديه أهمّيّة بالغة **للفقراء**، سواء أكان فقرهم مادّيًّا أو معنويًّا أم روحيًّا؛ وبالتالي فإنّه يدعو إلى **الاهتمام بهم**.

الأنبياء

للأنبياء، في هذا الصدد، **نبرات** نافذة، ولا سيّما منذ خراب أورشليم وجلاء إسرائيل. ففي خِضمِّ خيانة شعب الله، ظهرت فئة جديدة من الشعب الأمين للعهد، ألا وهي <**البقيّة الباقية**> وهي تتّسم فعلًا **بالفقر**.

لنسمع على سبيل المثال قول صفنيا، في حوالى سنة ٦٤٠-٦٥٠، يصف فيه **روح الفقر** التي تتّسم به هذه الفئة:

<في ذلك اليوم،
لا تخجلين من جميع أعمالك التي عصيتِني بها
لأنّي حينئذ أنزع من وسطك **المُتباهين المتكبِّرين**

coptic-books.blogspot.com

فلا تعودين تتشامخين في جبل قُدسي.
وأُبقي في وسطك شعبًا **وضيعًا فقيرًا**
فتعتصم باسم الربِّ **بقيّة إسرائيل**. . . > (٣/ ١١-١٣).

ففي هذا الوصف الوجيز، تتحدّد ملامح ما يُمكننا تسميته **لاهوت روح الفقر**، حيث الجمع بين **الفقر والتواضع** أمام الغِنى والكبرياء، والذي سيكتمل معناه في نشيد مريم العذراء:

< . . . شتّت **المُتكبِّرين** في قلوبهم.
حطّ **الأقوياء** عن العروش، ورفع **الوضعاء**.
أشبع **الجياع** من الخيرات، وصرف **الأغنياء** فارغين.
نصر عبده إسرائيل. . . > (لو ٢/ ٤٦-٥٥).

ولقد سعى إرميا وحزقيال وأشعيا الثاني أن يجمعوا هذا الشعب، بملامح جديدة حيث **التطابق** بين **شعب الله المختار** من جهة، **والفقراء** من جهة أخرى:

<إنّ الربّ قد عزّى **شعبه** ورحم **بائسيه**> (أش ٤٩/ ١٣).

وعند أشعيا الثالث، أصبح **الفقر نموذجًا دينيًّا**، حيث سيأتي **«المسيّا» المنتظر لينصر الفقراء**:

<روح السيِّد عليّ، لأنّ الربّ مسحني وأرسلني
لأبشِّر **الفقراء**، وأُجبر **منكسري القلوب**
وأُنادي بإفراج عن **المسبيِّين** وبتخلية **للمأسورين**
لأُعلن سنة رضًا عند الربّ> (أش ٦١/ ١-٢).

ولقد **حقّق يسوع** ملء هذه النبوءة حين استهلّ رسالته العلنيّة بتلاوة هذا النصّ، مضيفًا إليه:

<اليوم تمّت هذه الآية بمسمع منكم> (لو ٤/ ١٤-٢١).

وإنّ هذه <البقيّة> قد **وضعت ثقتها في الله**، وذلك في

coptic-books.blogspot.com

صميم ما عانته من ذُلِّ الكبار واستغلال الأغنياء، ولذلك **باركها الله** ولا سيّما بإرساله «المسيّا» الذي سيكشف ملء معنى الفقر وسيُولي بالغ اهتمامه بالفقراء.

وتطبيقًا عمليًا لكلِّ ذلك، نادى أشعيا **بمساعدة الفقراء**:

<أليس الصوم الذي فضّلتُه هو هذا:
حلُّ قيود الشرِّ وفكُّ رُبُط النير وإطلاق **المسحوقين** أحرارًا
وتحطيم كلِّ نير؟
أليس أن تكسر **للجائع** خبزك
وأن تُدخل **البائسين المطرودين** بيتك
وإذا رأيت **العريان** أن تكسوه وأن لا تتوارى عن **لحمك**؟...
إذا تخلّيتَ عن لقمتك **للجائع** وأشبعت **الحلق المعذّب**
يُشرق نورك...
وأنت تُقيم أُسس الجبال وتُدعى
سادَّ الثُّلمة ومُرمِّم الأزقّة للسُّكنى> (أش ٥٨/١-١٢).

يسوع

ويندرج **تعليم يسوع** في هذا النداء **النبويِّ** عندما **طوّب الفقراء**:

<طوبى للفقراء... للجائعين... للباكين...>
(لو ٦/ ٢٠-٢٦//)

حتّى إنّ اهتمامه بهم أصبح من **علامات مسيانيّته**؛ فعن سؤال يوحنّا:

<أأنت الآتي أم آخر ننتظر؟>،

أجاب:

<العميان يُبصرون والعُرج يمشون مشيًا سويًا والبُرص يبرأون والصُّمُّ يسمعون والموتى يقومون والفقراء يُبشَّرون>
(لو ٦/ ٢٠-٢٣).

coptic-books.blogspot.com

فعلامة مسيانيّته هي فعلًا الاهتمام بالفقراء.

وكما اهتمّ هو بالفقراء والمعوزين، فكذلك دعا إلى **مساعدتهم**:

<بيعوا أموالكم وتصدّقوا بها...> (لو ١٢/ ٣٣).

وينفرد سفر أعمال الرسل بذكر قول ليسوع على لسان بولس:

<السعادة في **العطاء** أعظم منها في الأخذ>

(رسل ٢٠/ ٣٥).

فممّا يستوقف النظر أنّ حديث يسوع عن الفقر كان يتوخّى دائمًا **مساعدة الفقراء**؛ فقد أوصى الشابّ الغنيّ:

<اذهب فبع ما تملك وأعطه للفقراء> (مر ١٠/ ٢١).

وعندما أوفد تلاميذَه إلى الرسالة وطالبهم بالفقر، ففي سبيل **علاقة صادقة أصيلة**، يُخشى أن يُفقدها الغنى عادةً، وذلك حتّى يتسنّى لهم أن يعلنوا الملكوت (متّى ١٠/ ٥-١٢). وعندما أثنى على تصرُّف الوكيل الخائن، ففي سبيل **تشييد علاقات بشريّة تُفيد في الأبديّة**:

<اتّخِذوا لكم أصدقاء بالمال الحرام

حتّى إذا فُقد، قبلوكم في المساكن الأبديّة> (لو ١٦/ ٩)...

فالمُراد من كلِّ ذلك أنّ المال والممتلكات هي في خدمة **العلاقات بين البشر**، لأنّ تلك الفلسفة تُضفي معنى عميقًا على المادّيّات، بل وتُؤنْسِنُها.

وهناك أيضًا تعليم يسوع **الأخيريّ** عندما وضع **مساعدة الفقير** مقياسًا للدينونة العُظمى:

<جعتُ... وعطشتُ... وكنتُ غريبًا... وعريانًا...

ومريضًا... وسجينًا...> (متّى ٢٥/ ٣١-٤٦).

coptic-books.blogspot.com

وعليه، فقد **طابق يسوع مصيره الشخصيّ بمصير الفقراء**، لا في هذه الدنيا فحسْب، بل في الأبديّة أيضًا. ولا غرابة في ذلك إذا تذكّرنا أنّ الابن الأزليّ فقير في جوهره وكينونته. وحين صرّح لتلاميذه في آخر ظهور لهم بعد قيامته:

<هاءنذا معكم طوال الأيّام إلى نهاية العالم>
(متّى ٢٨/ ٢٠)،

فإنّه قصد - ضمن ما قصد - **حضوره للبشر في شخص الفقير**، كما أنّه حاضر في **الإفخارستيّا**:

- <هذا هو جسدي... هذا هو دمي...> (متّى ٢٦/ ١١)-

وحاضر في **المُرسَلين**:

- <مَن قبِل الذي أُرسله، فقد قبلني أنا> (يو ١٣/ ٢٠) -

وحاضر في **الأطفال الصغار**:

- <مَن قبل هذا الطفل إكرامًا لاسمي، فقد قبلني أنا>
(لو ٩/ ٤٨) -...

ولقد ركّز علم اللاهوت على حضوره الحقيقيّ في الإفخارستيا وفي السلطات الدينيّة، مُتناسيًا أحيانًا حضوره الفعليّ في الفقراء والصغار. وتظلُّ نبرات يوحنّا الذهبيّ الفم في الربط العضويّ بين الإفخارستيّا والفقراء نبرات لا مثيل لها:

«أتبغي تكريم جسد المسيح؟
لا تبدأ باحتقاره عندما يكون عاريًا.
لا تُكرِّمْهُ هُنا بأقمشة من حرير
وتُهمله في الخارج حيث يُعاني البرد والعُري.
لأنّ الذي قال: «هذا هو جسدي»
هو نفسه قال: «كنتُ جائعًا ولم تُطعموني».
وأيُّ فائدة في أن تحتفل مائدةُ المسيح بكؤوس الذهب

coptic-books.blogspot.com

وأن يموت هو من الجوع؟
أطعم الجائع أوّلًا
ثمَّ زيِّن مائدة المسيح.
أنت تصنع كأس ذهب
ولا تمنحُ كأس ماء؟
احترس وأنت تُزيِّنُ مسكنه
ولا تحتقر أخاك المفجوع، لأنَّ هذا الهيكل أثمنُ من ذاك.
مَن يتصدَّق
يُمارس خدمةً كهنوتيَّة.
أتبغي رؤية مذبحه؟
إنَّ مذبحه أعضاءُ المسيح.
جسد المسيح أضحى لك مذبحًا، فقدِّم له الإجلال
إنَّه لَأسمى من مذبح الحجر حيث تحتفل بالذبيحة المقدَّسة.
إنّك تُكرِّم المذبح الذي يحمل جسد المسيح
وتحتقر المذبح الذي هو جسدُ المسيح؟
هذا المذبح
يُمكنك أن تتأمَّله في أيِّ مكان: في الشوارع والساحات
يُمكنك أن تُقيم عليه الذبيحة كلَّ ساعة».

وعليه، فإنّ ابن الآب وربّ المجد ومخلِّص البشر وسيِّد الخليقة قد اختار الفقر الكلِّيّ، بل **طابق شخصَه المجيد بشخص الفقراء ومصيرَه بمصيرهم**[1].

وعلاوة على ذلك، واستباقًا لما سيتمُّ في الآخرة، فإنّ يسوع قد **دعا بعض الناس** إلى أن يبيعوا ممتلكاتهم ويتصدّقوا بها على الفقراء كي يتفرّغوا لاتِّباعه تفرُّغًا جذريًّا (مر ١٠/١٧-٣١)، وإنّ

(١) للمزيد من الاستفسار عن هذا التطابق، راجع الوحدة الثالثة من كتابنا: =

coptic-books.blogspot.com

هذه الدعوة الخاصّة هي بمثابة نواة لنذر الفقر.

الجماعة المسيحيّة الأُولى

وإذا ألقينا نظرة على **الجماعة المسيحيّة الأولى**، وجدناها تحيا المنطق عينه:

< يجعلون كلّ شيء **مُشتركًا** بينهم
يبيعون أملاكهم وأموالهم
ويتقاسمون الثمن على قدر احتياج كلٍّ منهم... >
(رسل ٢/ ٤٢-٤٧).

< كانت جماعة الذين آمنوا قلبًا واحدًا ونفسًا واحدة
لا يقول أحد إنّه يملك شيئًا من أمواله،
بل كان كلُّ شيء **مشتركًا** بينهم...
لم يكن فيهم **محتاج**... **يُعطى** كلٌّ منهم على قدر احتياجه >
(رسل ٤/ ٣٢-٣٥).

فمن الواضح أنّ هدف الفقر هو **الاهتمام بالمحتاجين**، فتُصبح **الجماعة قلبًا واحدًا ونفسًا واحدة**.

الخلاصة

نستخلص من هذه الجولة الكتابيّة السريعة أنّ **الاهتمام بالفقير** هو نمط كنسيٌّ مستديم، فالكنيسة فقيرة مع الفقراء، على مثال عريسها وربِّها. وعليه، فإنّ **هدف** الحياة المسيحيّة بوجه عامٍّ والحياة الرهبانيّة بوجه خاصٍّ هو **الاهتمام بالفقراء**. وتجدر بنا الإشارة إلى أنّ الكتاب المقدّس **لا يُطوِّب الفقر، بل الفقراء**. فعندما صرّح يسوع:

=**المجتمع في ميزان الكنيسة** - سلسلة «الإيمان والحياة» رقم ٥ - مطبوعات الآباء اليسوعيّين في مصر - القاهرة ١٩٧٩.

coptic-books.blogspot.com

<إنّ الفقراء عندكم دائمًا أبدًا> (يو ١٢/٨)،
فإنّه لم يُعظِّم الفقر ولا مواقف الفقر في العالم، بل وصف وضعًا سائدًا في مجتمعه، وفي سائر المجتمعات، في عصره وفي سائر العصور. فالتطويبة تتعلّق بالفقراء، لا بالفقر؛ والحبُّ خاصٌّ بالفقراء، لا بالفقر. وعليه، يمكننا التأكيد أنّ هدف نذر الفقر هو الاهتمام بالفقراء الذين خصّهم يسوع بمحبّة تفضيليّة وباهتمام بالغ. وأمّا **التحرُّر من الممتلكات**، فليس هو بهدف، بل هو **شرط** لا محالّ منه للاهتمام بالفقراء اهتمامًا صادقًا، لأنّ الغِنى عائق لتشييد علاقة أصيلة بالفقراء، كما سيتّضح لنا ذلك في الفصل القادم.

أوجه الاهتمام بالفقراء المختلفة

نتطرّق الآن، بناء على ما سبق، إلى **الممارسات المتعدِّدة** التي ابتدعتها **الرهبانيّات المختلفة** للاهتمام بالفقراء، نذكر منها ثلاثة **نماذج** لها دلالتها لأنّها تجمع بين القديم والجديد من ممارسة نذر الفقر الرهبانيّ:

مساعدة الفقير

إنّ الاهتمام **بالفقير كفقير** لَمِن الوجوه المُشرِّفة للحياة الرهبانيّة على مدار تاريخ الكنيسة وإلى اليوم. فالفقير هو **صورة حيّة للمسيح المتألِّم**، ولذلك أولاه الرهبان دائمًا اهتمامًا شخصيًّا خاصًّا. فجميع الرهبانيّات، من جميع الأمكنة والأزمنة، ساعدت الفقير المحتاج؛ ومعظمها سعت لأن تُخرجه من فقره، ولا أن تتصدّق بالمال فقط.

ويظلُّ مَثل الأبّا بيشوي مؤثِّرًا في النفوس: فيُحكى أنّ رهبانًا قد أُخطروا أنّ المسيح سيظهر لهم على الجبل، فأسرعوا للقائه. وفي طريقهم، لقوا مسكينًا مُلقًى على الأرض، ولكنّهم جميعًا لم يُبالوا به، لشديد رغبتهم في مقابلة المسيح على الجبل، ما عدا

coptic-books.blogspot.com

الراهب بيشوي الذي فضّل أن يتوقّف عند هذا المسكين ويحمله على كتفيه ويقوده إلى الدير حيث غسل له قدميه. وحينذاك اكتشف أنّ هذا المسكين هو المسيح نفسه، فقد التقاه بمعزل عن سائر الرهبان. وهذا ما جرى أيضًا للقدّيس خريستوفورس - أي «حامل المسيح» - الذي حمل على كتفيه طفلًا مسكينًا وعبر به النهر، فاكتشف أنّه المسيح.

وقال راهب من الشرق:

«يجب أن أبحث عن المسيح وأن أكتشفه حيث يختفي أعني في المكان الأخير وفي أعضائه المتألّمة والمحتقَرة».

ولا يختلف الأمر عند منصور دي پول الذي كان يعتبر أنّه يترك المسيح في صلاته ليقابله في خدمته للفقير، فهو بالفعل لا يترك المسيح. فقد خاطب بناته مُناشدًا إيّاهنّ:

«يجب عدم المُماطلة في خدمة الفقراء. فإذا أنتنّ اضطررتُنَّ أن تعطين فقيرًا دواء في الصباح، في ساعة الصلاة، فاذهبنَ بكلِّ ارتياح. وقدِّمنَ لله عملكنّ، ووحِّدنَ نيّتكنّ بالصلاة القائمة في الدير، أو في مكان آخر، واذهبنَ بلا قلق.

وإذا رجعتنَّ، فإن تيسّر لكنّ أن تقُمن بصلاة قصيرة أو بقراءة روحيّة سريعة، فنِعمَ ما تفعلنَ. ولكن لا يجوز أن تقلقنَ، ولا أن تظنّنَّ أنّكنَّ مُقصِّرات إن فاتتكنّ الصلاة، لأنّ الصلاة لا تفوتكنّ إن تركتنَّ إيّاها لسبب مشروع. وإنّما السبب المشروع، يا بناتي العزيزات، هو خدمة القريب.

فليس تركُ الله لله تركًا لله، فأنتنَّ تتركنَ عملًا إلهيًّا للقيام بعمل إلهيّ آخر، أو بعمل أكثر أهمّيّة أو أكثر استحقاقًا. فإذا تركتنَّ الصلاة أو القراءة الروحيّة، أو إذا قطعتنّ الصمت لإعانة فقير، فاعلمنَ، وابناتي، أنّ **عملكنّ كلّه هذا هو خدمته تعالى**.

coptic-books.blogspot.com

فأيقنَّ أنّ المحبّة هي فوق جميع القوانين، ويجب على هذه كلِّها أن تُطابق المحبّة. فالمحبّة هي سيِّدة فاضلة، فيجب طاعة أوامرها. فلننطلق إذًا، ولنجتهد في خدمة الفقراء بحُبٍّ مُجدَّد، ولنبحث حتّى عن الأكثر فقرًا والأكثر هجرًا. ولنعترف أمام الله بأنّهم أسيادنا ومُعلِّمونا، وأنّنا غير أهل لأن نُسدي لهم خدماتنا الضئيلة».

وتكثر الأمثلة والعبارات الرهبانيّة التقويّة التي تُعبِّر عن **ظهور المسيح في ملامح الفقير** الذي يصبح **إيقونة المسيح الحيّة**.

وبما أنّ نذر التبتُّل يفتح قلب الرهبان على جميع البشر، فإنّه يفتحه بوجه خاصٍّ على الفقراء، وهم أحباب الله. وقد ظهر في السنوات الأخيرة تعبير مُميَّز، ألا وهو **حبُّ الفقراء حبًّا تفضيليًّا**. وليس هذا الحبُّ مقصورًا عليهم، بل هو تفضيليٌّ ويشمل غيرهم أيضًا.

خدمة قضيّة الفقراء

إنّ خدمة الفقراء - ولا سيّما قضايا الفقر في العالم وفي المجتمعات البشريّة - تُمثِّل نوعيّة أُخرى من الاهتمام بهم، تقتضيها الظروف المعاصرة والتحوُّلات الراهنة. فلقد تغيّرت الأوضاع **الاجتماعيّة**، فلم تعُد مساعدةُ الفقير - كفرد - أمرًا كافيًا، وإن كانت ضروريّة إلى أقصى حدّ؛ بل أصبحت **الفئات** المنبوذة والمُهمَّشة، والمقهورة والمظلومة... مدارَ اهتمام مُلحٍّ ضروريّ. كما أنّ الأوضاع **الجغرافيّة** أيضًا قد تغيّرت، فلم يعُد **العالم الثالث** - أي الدول النامية - **والعالم الرابع** - أي الفئات السابقة الذكر - مُحدَّدَيْن جغرافيًّا في أماكن معيّنة، بل أصبح كلُّ مجتمع يُفرز فئات فقيرة. وكذلك قد تبدّلت المفاهيم **الأنثروبولوجيّة** حيث الحِسُّ المعاصر

coptic-books.blogspot.com

بكرامة الإنسان وبالدفاع عن **حقوقه الإنسانيّة**. وعليه، فإنّ هذه المتغيِّرات تُحتِّم اهتمامًا ملائمًا بالفقراء، كفئات تُكوِّن المجتمع، ولا كأفراد يستحقُّون المساعدة فقط.

ومن الأمور المُشرِّفة في الحياة الرهبانيّة، أنّ العديد من الرهبان قد دافعوا عن الفقراء، لا بكلامهم وأفعالهم فحسب، بل **بدمائهم** أيضًا، كما أراق شهداء القرون الأولى دماءهم في سبيل نشر الإنجيل. فاليوم، أصبح الرهبان يدركون أنّ حياتهم كلّها هي في خدمة الفقراء والدفاع عنهم، أمانةً منهم لنذرهم الفقرَ ولنشرهم إنجيلَ التحرُّر والخلاص؛ فإنّ خدمة **الإيمان** وتعزيز **العدالة** وجهان متكاملان لا ينفصلان.

فإزاء هذه المتغيِّرات وغيرها من المتغيِّرات، لا يستطيع الناذرون نذر الفقر أن يظلُّوا لا مُبالين، بل ينبغي لهم أن يجسِّدوا نذرهم في واقع الظروف الجديدة المتقلِّبة، ونذكر بعض المجالات الممكنة:

نذكر **تأسيس مؤسّسات** تساعد الفقراء على الخروج من فقرهم، والتحرُّر من وضعهم المأسويّ. فما من قيمة على الإطلاق للفقر والبؤس والظلم، بل هي قِيَم سلبيّة ينبغي القضاء عليها بجميع الطرق والوسائل؛ وإنّما القيمة الوحيدة هي للفقراء والبائسين والمظلومين.

وقد قامت الكنيسة عمومًا والرهبانيّات خصوصًا بذلك في تاريخها الحافل، من تأسيس مستشفيات ومستوصفات، وملاجئ ومآوٍ...، في أوقات وأمكنة لم تُقم فيها السلطات المدنيّة بها، فأصبحت المسيحيّة **رائدة** في مِثل هذه المجالات. ولدينا ملاحظتان مُعاصرتان في هذا الإطار - إحداهما بالسالب، والأخرى بالإيجاب

coptic-books.blogspot.com

- يُركِّز عليهما اليوم **الفكر المسيحيُّ المعاصر** في مجال **العدالة الاجتماعيّة والسلام**:

إنّ محاربة **هياكل الخطيئة** - بحسب عبارة البابا يوحنّا بولس الثاني، وقد أخذت رواجًا كبيرًا في الأوساط الكنسيّة - لَمِن الأولويّات المُلحّة في عالمنا المعاصر. فالمؤسّسات العالميّة - من حكومات وشركات دُوَليّة ومراكز قوّة... - تشترك في **استغلال الفقراء** - أكانوا أشخاصًا لا صوت لهم، أم دُوَلًا غير قادرة من العالم الثالث - بروح تُنافي تمامًا روح الإنجيل والتطويبات. فيقع على عاتق المسيحيِّين عمومًا والرهبان الذين نذروا نذر الفقر خصوصًا، أن يقاوموا هذه العقليّة السائدة في جميع أرجاء المسكونة، وألّا يدّخروا وسعًا في محاربتها، **دفاعًا** منهم عن المظلومين والضعفاء والمقهورين، ولا سيّما عن حقوقهم المهدورة. فلنتذكّر أنّ اختبار إسرائيل الدينيّ كان **اختبار التحرُّر**، أي «الخروج» من العبوديّة إلى الحرِّيَّة. وهذا ما يسعى الناذرون أن يعيشوه، حين يساهمون في تحرير إخوتهم المقهورين والمنبوذين من عبوديّة فقرهم، لينال هؤلاء خلاصَ الربِّ من خلال إخوتهم. فالفقر - شانه شأن الغِنى - قد يحمل الفقراء على أن يتركوا الله وأن يفقدوا الرجاء فيه والسير نحو ملكوته - شأنهم شأن الأغنياء -. فالمسيحيُّون عمومًا والرهبان خصوصًا مدعوُّون إلى أن يشتركوا في تحرير إخوتهم البشر في سبيل خلاصهم. هذا هو الإنجيل الحيّ، وهذا هو تطلُّب نذر الفقر بحسب مُقتضى حال عالمنا المعاصر.

وبوجه موجب، إن اكتفى الماضي بتأسيس مؤسّسات خِدَميّة خاصّة بالفقراء، فالحاجة تختلف اليوم عمّا كانت في الماضي. فعالمنا اليوم في أمسِّ الحاجة إلى مؤسّسات **تنمويّة** للنُّهوض بوضع الفقراء. فلم تعُد الخدمة المباشرة تكفي، لأنّها تخدم **حالة** الفقراء

coptic-books.blogspot.com

الموقّتة، وهذا العمل يُثنى عليه بلا أدنى شكّ، ولكنّه لا يكفي اليوم. فإنّ خدمة **وضعهم** المأسويّ هي اليوم الخدمة الضروريّة والمُلِحّة. فوضعهم هذا يستدعي مؤسّسات تصبو إلى أن تُخرجهم منه، وذلك من خلال مشاريع تنمويّة تدوم مفاعيلها ولا تنتهي آثارها بانتهاء الخدمة المباشرة نفسها. فنذر الفقر اليوم يتّجه في هذا الاتّجاه العمليّ، وإن ظلّت روحه هي هي أمس واليوم.

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أنّ **تنمية «حقوق الإنسان»** لَمِن وجوه الالتزام الرهبانيّ، ولا سيّما عندما تتعلّق بالفقير كشخص، حتّى لا يقع هذا الاهتمام في فخّ الإيديولوجيا المجرَّدة والاستراتيجيّا السياسيّة أو الاقتصاديّة أو الاجتماعيّة. والحقُّ يقال إنّ «حقوق الإنسان» التي أقرّتها الأمم المتّحدة منذ خمسين سنة، هي دستورٌ مدنيّ، لا دينيٌّ ولا رهبانيّ، وقد تحدّدت ملامحه الأُولى إبّان الثورة الفرنسيّة في السنة ١٧٨٩. غير أنّ دافعه الأساسيّ قد ألهمته بالفعل الحضارة اليهوديّة المسيحيّة؛ وبالتالي فإنّ اهتمامات الحياة الرهبانيّة لا تستطيع أن تظلّ غريبة عنها، بل ينبغي لها أن توليها اهتمامًا خاصًّا.

وختامًا لهذا الجانب من الاهتمام بالفقراء، نورد نصًّا خاصًّا بالرهبانيّة اليسوعيّة، أقرّه مجمعها العامُّ في السنة ١٩٧٥، وقد أخذ رواجًا واسعًا في الكنيسة وسائر الرهبانيّات، وهو يدمج بين **«خدمة الإنجيل وتعزيز العدالة»** (القرار ٤):

«يُمكن القول بإيجاز إنّ رسالة رهبانيّة يسوع في هذه الأيّام هي **خدمة الإيمان**، وإنّ **تعزيز العدالة** هو أحد **التطلُّبات المُطلقة**، إذ إنّ مُصالحة البشر مع الله تشترط المُصالحة في ما بينهم» (العدد ٢).

«وفي أيّامنا هذه، تظلُّ رسالةُ الرهبانيّة خدمة الإيمان

coptic-books.blogspot.com

الكهنوتيّة، وهي مُهمّة رسوليّة تهدف إلى مُساعدة البشر على الانفتاح على الله وعلى الحياة وفقًا للإنجيل في جميع مُتطلّباته ونداءاته.

وإنّ الحياة وَفقًا للإنجيل هي حياة مُنزّهة عن كلّ أنانيّة، وعن كلّ بحث عن المنفعة الخاصّة، وعن جميع أشكال استغلال القريب. هي حياة تُشعُّ فيها عدالة الإنجيل الكاملة التي لا تسعى فقط إلى الاعتراف بحقوق وكرامة الجميع - ولا سيّما الأصغر والأضعف منهم -، وإلى احترامهما، بل إلى تنميتها أيضًا تنمية فعّالة، وإلى تفهُّم كلّ بؤس - وإن كان بؤس الغريب أو العدوّ -، حتّى الصفح عن الذنوب وتجاوز العداوات، وذلك بالمصالحة.

وإنّ استعداد النفس هذا لا يُمكن نيلُه بمجهودات الإنسان وحدها، بل هو ثمر الروح. فالروح يُغيِّر القلوب ويملأها برحمة الله وبقوّته، وقد أظهر الله عدالته إذ رحمنا عندما كُنّا ظالمين، وإذ دعانا إلى صداقته (راجع روم ٥/٨-٩).

وعليه، فإنّ **تعزيز العدالة جزء لا يتجزّأ من خدمة الإيمان الكهنوتيّة**» (العدد ١٨).

«إنّ الملايين من البشر - ولكلٍّ منهم اسمه ووجهه - يتعذّبون اليوم بسبب الفقر والجوع، وتوزيع الخيرات والموارد توزيعًا غير عادل، ونتائج التفرقة الاجتماعيّة والعُنصريّة والسياسيّة. ففي كلّ مكان، تُهدَّد يوميًّا حياةُ الإنسان وقيمته. وبالرغم ممّا تمنحه التكنولوجيا من إمكانيّات، فإنّه من الواضح - بوجه مُتزايد - أنّ الإنسان غيرُ مُستعدٍّ أن يُشيِّد مجتمعًا أكثر عدالة وإنسانيّة» (العدد ٢٠).

«إنّ هذه المشاكل التي لا يغفلها أحد - فمَن لا يُدركها، وإن كان بوجه تقريبيّ - تختصُّ بالصعيد الشخصيّ والروحيّ،

coptic-books.blogspot.com

والاجتماعيّ والعمليّ كذلك. فإنّها تتعلّق بمعنى الإنسان ومُستقبله ومصيره. فلا يجوع الإنسان إلى الخبز وحده، بل إلى كلمة الله أيضًا (تثنية ٨/ ٣، متّى ٤/ ٤). وعليه، ينبغي إعلان البُشرى بقوّة جديدة حتّى تُسمَع. ففي نظرة أُولى، قد يبدو أنّ الله غائب عن الحياة العامّة بل وعن الضمير البشريّ؛ ومع ذلك، فإذا أمعنّا النظر، اكتشفنا أنّه في كلِّ مكان يسعى البشر إلى البحث عن يسوع المسيح وينتظرون مُلكه، مُلكَ الحبِّ والعدالة والسلام» (العدد ٢١).

«... لنا نصيب نحن أيضًا في العَمى والظلم اللذين وصفناهما؛ ونحن بحاجة إلى مَن يُبشِّرنا، وإلى أن نلتقي المسيح وهو يعمل اليوم بقوّة روحه القدُّوس. وفي الوقت عينه، فنحن مُرسَلون إلى هذا العالم نفسه؛ فإنّ **حاجاته وتطلُّعاته هي بمثابة نداء إلى الإنجيل**، وتقع رسالةُ إعلانه على عاتقنا» (العدد ٢٣).

التضامن مع الفئات الفقيرة

إنّ **التضامن مع فئات فقيرة** وجه من وجوه مساعدة الفقير، وهو تقليديّ في الحياة الرهبانيّة، إلّا أنّه أخذ رواجًا كبيرًا في عالمنا اليوم، حتّى إنّ بعض الرهبانيّات المعاصرة اعتبرته اسمًا جديدًا للمحبّة وتعبيرًا جديدًا عن ممارسة نذر الفقر. فإنّ مساعدة الفقير، وخدمته، والعمل في سبيله... هي أُمور قد لا تخلو من الإحساس بالكبرياء لأنّ المُعطي أغنى من المُعطى له، أو قد ينتابه شعور بتحقيق الذات، أو ما أشبه ذلك من دوافع كامنة في كلِّ إنسان وإن كانت متستِّرة أو غير مُعلَنة. وأمّا التضامن، فمعناه هو **تحمُّل وضع الفقير** تحمُّلًا اختياريًّا شخصيًّا.

لذلك، فقد ركّزت بعض الرهبانيّات على **التعايش مع الفقراء**،

coptic-books.blogspot.com

وعلى **مقاسمة نمط حياتهم، وظروف حياتهم** أيضًا، بما فيها من **عدم ضمان** المستقبل، ومن **عدم الاستقرار** في المأكل والملبس، وفي المسكن والعمل، وفي العلاج ومفاجآت الحياة. . . وإنّ هذه النوعيّة من الاهتمام بالفقراء هي **حضور** أكثر ممّا هي عمل، وهو حضور يسوع نفسه عندما كان يؤاكل الخطأة وجميع الفئات المنبوذة التي لم يولِها المجتمع أدنى قدر من الاحترام والأهمّيّة. وفي ذلك تظهر **الروح المجّانيّة** التي لا تبغي العمل الملموس بقدر ما تستهدف أن تجعل المسيح قريبًا من المحتاجين وحاضرًا لهم؛ فهؤلاء الرهبان هم **إيقونة المسيح الحاضر للفقير القريب منه**.

ونورد نصًّا مقتبسًا من قوانين «أخوات يسوع الصغيرات» - وتأسيس رهبانيّتهنّ يرقى إلى القرن العشرين - يوضّح **معنى التضامن مع الفقراء**:

«بموجب تضامن الأُخوّة المُميَّز مع جيرانها في الحيّ أو القرية ومع العُمّال الذين تُشاركهم في حياتهم ومصيرهم، فإنّها تُساهم بجهودها المبذولة في تغيير أوضاع غالبًا ما تُجرِّد الحياة من إنسانيّتها. وهذا التضامن يزيد ترابطها بمصير هؤلاء الذين يتعرّضون بوجه مؤلم للظُّلم وعدم المساواة الفادحة في المجتمع، فتتّحد بهم في صُراخهم، دفاعًا عن حقوقهم المشروعة:

«الدفاع عن قريبنا المُعتدى عليه ظُلمًا والمُضطهَد ظُلمًا. . . يعني أكيدًا أحد الواجبات التي يفرضها علينا حبُّ يسوع وحبُّ البشر من أجل يسوع» (الأخ شارل يسوع).

وفي بعض الظروف، وبعد تمييز يتمُّ في الصلاة والجماعة، لن تتردّد الأُخوّة في أن تلتزم التزامًا واقعيًّا إلى جانب المُضطهَدين بسبب عِرقهم أو وضعهم الاجتماعيّ أو مُعتقدهم، فتُشاركهم

coptic-books.blogspot.com

حتّى النهاية في توقهم إلى العدالة.

وفي خِضمِّ هذه الصراعات المُؤلمة جدًّا، يكون لكِ الإنجيلُ بمثابة دافعكِ الناجع إلى تضامن لا يُساوره أيُّ التباس. فهو كفيلكِ الوحيد لتكتشفي كيفيّة هذا التضامن بحسب روح يسوع وبالاتِّحاد بالكنيسة؛ وما ذلك إلّا بدافع التحرُّر الذي أراده الله خالق كلّ كائن بشريٍّ ليمنحه ملء الحياة» (العدد ١/ ٩).

«يتّسم الفقر الذي تتبنِّينه بطابع الفقر المادّيّ والاجتماعيّ المميَّز لدى العمّال الفقراء. ويتوجّب عليكِ - كما وعلى جميع الأخوّات - أن تشهدي بأمانتك ليسوع الفقير من خلال مشاركة الفقراء في أوضاعهم الاجتماعيّة التي اختارتها الأُخوّة كنهجٍ لها حتّى في تعدُّد الاندماجات والخدمات.

وينمُّ نمط حياتك والتزامك بالعمل عن هذا الوضع الاجتماعيِّ المتواضع. وتُعبِّرين عن هذه الإرادة الشخصيّة والجماعيّة في عيش الفقر، من خلال المسكن وأثاثه وإعداده، وكذلك في اللّباس وفي الطعام.

ولن تشاركي الفقراء في معاناتهم المتأتّية من فقرهم المادّيّ فقط، بل في عدم الاكتراث أيضًا لما يترتّب على الفقر الاجتماعيّ. ستعيشين هذا التضامن بتواضع لأنّكِ لن تصبحين أبدًا فقيرة كالفقراء الذين لم يختاروا فقرهم من تلقاء أنفسهم.

وبسبب الحرمان الذي هو عادةً من نصيب الفقراء، عليكِ أن تسعي أن تكتفي بالقليل من الحاجات، وتبقي أمينة على الوسائل الفقيرة» (العدد ١/ ٤٨ - راجع العدد ١/ ١٣).

ومن الوسائل المُتَّبعة حديثًا في هذا المجال، **العملُ**، ولا سيّما العمل اليدويّ، تعبيرًا عن المشاركة والتضامن، بقدر ما سوادُ الفئات الفقيرة تعمل يدويًّا. وقد يكون العمل بديلًا **للاستعطاء** الذي

coptic-books.blogspot.com

تميّزت به بعض الرهبانيّات، خاصّة الرهبانيّتان الفرنسيسيّة والدُّومينيكيّة في القرن الثالث عشر. وممّا يؤيِّد هذا التحوُّل أنّ **يسوع** لم يستعطِ قطّ، بل كان يعمل بيديه ويكسب قوته بعرق جبينه، ثمرةً لعمله اليدويّ. وكذلك الأمر في **الرهبانيّات المتعبِّدة**، فإنّها لا تعتمد على صَدَقة المحسنين بل على ثمرة عمل رهبانها، ممّا يسمح لها بأن تتصدّق هي على الفقراء. وجدير بالإشارة أنّ **فرنسيس الأسيزيّ** نفسه - الذي أراد أن تكون رهبانيّته متسوِّلة - أراد أن يضع الرهبان أنفسهم تحت تصرُّف الفلّاحين ليعملوا معهم ويكسبوا هكذا خبزهم اليوميّ بحسب ما يراه مَن يوظِّفهم وبدون أيِّ ضمان؛ وعندما كانوا يستعطون، كانوا يقاسمون ما يقتنونه مع الفقراء. وأمّا **إغناطيوس دي لويولا** - مؤسِّس الرهبانيّة اليسوعيّة في القرن السادس عشر - فقد بدأ حياة الاهتداء بالاستعطاء، ولكن سرعان ما فهِم أنّ ذلك كان بمثابة مرحلة تطهير في مسيرته الحياتيّة والروحيّة والخِدَميّة؛ غير أنّه احتفظ بمجّانيّة الخدمات، ورفض الامتيازات المادِّيّة الخاصّة بكهنة عصره، وشدّد على ضرورة مقاسمة الخيرات مع الفقراء والاهتمام بهم، وكلُّ ذلك تطبيقًا منه لروح الفقر الرهبانيّ.

والحقُّ يقال إنّ عالمنا المعاصر يُضفي على **العمل** - أيّة كانت نوعيّته، يدويًّا كان، أم فكريًّا، أم إداريًّا... - **قيمة** حقيقيّة، قد ساهمت الماركسيّة بلا شكٍّ في هذا الاعتراف. غير أنّ يسوع قدّس العمل البشريّ، إذ قام بعمل يدويٍّ مدّة ثلاثين عامًا. وهذا عينه ما تكتشفه **الرهبانيّات اليوم**، بالإضافة إلى واجب عدم الاحتفاظ بالممتلكات، بل مقاسمتها مع الفقراء. ففيما تربط الماركسيّة العمل **بالاستفادة الشخصيّة** منه، تربطه المسيحيّة عمومًا والحياة الرهبانيّة خصوصًا **بالمقاسمة مع المعوزين**؛ بالإضافة إلى أنّ المسيحيّة تعتبر

coptic-books.blogspot.com

الخليقة عطيّة من الله لجميع البشر بلا أيِّ استثناء، وما الإنسان سوى وكيل الله على وجه الأرض لتوزيع خيرات الله على الجميع توزيعًا عادلًا (تك ١/ ٢٦-٣٠). وقد عبّر القدِّيس أمبروسيوس عن الوكالة هذه بقوله:

«لستَ بمالك تجود على الفقير، ولكنّك تُعيد إليه ما يحقُّ له.
فما أُعطي جماعيًّا ليستخدمه الجميع، ها إنّك تستأثر به.
فالأرض قد أُعطيت لجميع الناس، ولا للغنيِّ فقط».

كما قال أحدهم:

«إنّ الغنيّ أمينُ صندوق الفقير».

وما هذا القول سوى صدى لكلمة يسوع:

<أخذتم مجّانًا، فمجّانًا أعطوا> (متّى ١٠/ ٩).

وعندما يؤدِّي الرهبان خدمة الوكالة هذه، فإنّهم يُذكِّرون الجميع بأنّ الله

<يُطلع شمسه على الأشرار والأخيار،
ويُنزل المطر على الأبرار والفُجّار> (متّى ٥/ ٤٥).

هكذا فإنّهم يُظهرون **وجه الله الرحيم** لجميع البشر، ولا سيّما لفقرائه، وحتّى للأشرار، لأنّ حبّه بلا حدود.

وتطبيقًا **لمعنى العمل مع الفقراء**، نورد نصًّا من قوانين «إخوة يسوع الصغار»، ورهبانيّتهم تُرقى إلى القرن العشرين:

أ - «إنّ العمل من متطلّبات الوضع البشريِّ العميقة. ويجب أن يكون مقرونًا بقِيَم الابتكار والمؤازرة والعدل والمشاركة في المسؤوليّات والأُخوّة الإنسانيّة. وفي الواقع، إذا انحرف العمل عن غايته، أصبح غالبًا عبئًا ثقيلًا ومدمِّرًا لتلك القِيَم. لذلك يسعى الإخوة إلى أن يعيشوا هذا الوضع بطريقة واعية ومسؤولة، **فيشتركون هكذا في عمل الخلق والفداء**.

coptic-books.blogspot.com

ب - يمارس الإخوة بوجه عامّ **عملًا يدويًّا لكسب معيشتهم ولمشاركة البشر في عملهم**» (العدد ٨٢).

١ - «إنّ «جماعات الإخوة» وجهًا يختلف بحسب البيئة والبلد، في العالم الريفيّ أو الصناعيّ، مع الحرفيّين أو البدو، في عالم الكادحين أو الهامشيّين... **ويُفضِّل الإخوة اختيار الأعمال العاديّة والتي لا يُقدِّرها الناس، تضامنًا منهم مع الأشخاص والأوساط الأكثر حرمانًا**.

ب - قد يخدم بعض الإخوة المرضى أو المعاقين، أو قد يقومون بأنواع أخرى من خدمة جماعة بشريّة معيّنة وترقيتها. وقد يلتزم بعض الإخوة بعمل تقنيّ متخصِّص أو بدراسة متعمِّقة لثقافة بلدهم، وذلك تلبيةً لحاجات ملحّة في البيئة أو الأُخوّة أو سعيًا للتواجد في بيئة لا يستطيعون الإقامة فيها بشكل آخر» (العدد ٨٣).

ويُفسِّر أحد الإخوة الصِّغار **معنى التضامن في العمل هذا وقيمتَه** الإنسانيّة عمومًا والمسيحيّة خصوصًا، بقوله:

«**يشارك الإخوة في حياة جيرانهم اليوميّة الاعتياديّة**، وتقوم هذه المشاركة على العلاقات الإنسانيّة البسيطة وعلى **علاقات العمل**. فالإخوة الصِّغار، شأنهم شأن كلّ الفقراء، **يعتمدون على عملهم اعتمادًا كلِّيًّا لكسب معيشتهم**، ويشتغلون في الأعمال اليدويّة، أو الحرفيّة، أو الزراعيّة، أو في المعامل، أو في القطاع التقنيّ أو الصحِّيّ... وإذا ما اشتغلوا في الأعمال الوضيعة عادة، فليس ذلك بروح الإماتة أو التواضع، بل **للشهادة قبل كلِّ شيء لروح الأُخوّة المسيحيّة بين صفوف المنسيِّين**، ولكي يصبحوا حقًّا وواقعًا «إخوتهم»: «فكِّرْ في أنّ الإخوة الصِّغار **يُقدِّمون أنفسهم** بصورة خاصّة للناس

coptic-books.blogspot.com

المتروكين والمُهْمَلين أكثر من سواهم، لِمَنْ يتألّمون ظُلمًا، لِمَنْ يتحاشاهم العالم أو يستصغرهم - عن حقٍّ أو بغير حقّ، لا فرق -، لِمَن يحتقرهم الآخرون بسبب عِرقهم أو وضعهم الاجتماعيّ: كلّ هؤلاء يجب أن يجدوا لديك **التفضيل بدافع حبٍّ حقيقيٍّ أخويٍّ وشامل**» (رينيه ڤوايوم: **قانون حياة الإخوة الصِّغار**)».

الخلاصة

لا شكّ أنّ الاهتمام بالفقراء - أيًّا كان مجاله - يترك بصماته في حياة الرهبان **ويؤثّر في أسلوب معيشتهم**، فيُترجمون حبّهم التفضيليّ لهم بمساعدتهم أو خدمتهم أو معايشتهم. وفي نهاية الأمر، فإنّ اهتمامهم هذا يُمثِّل لهم فائدة شخصيّة جمّة، ويحثُّهم على أن يعيشوا الفقر، فيُحقِّقوا هكذا نذرهم بالأفعال، لا بالأقوال والوعود فقط. وقد قال القدِّيس منصور دي پول:

«أنت محتاج إلى الفقير بقدر ما هو محتاج إليك».

فكم وكم من الرهبان بوسعهم أن يهتفوا:

«**الفقراء يُبشِّروننا**».

وكم منهم بوسعهم أن يُقرُّوا:

«**الله يفتقدنا في شخص الفقير**».

الفقر وبُعده الملَكيّ

إنّ مختلف وجوه الاهتمام بالفقراء تسعى لأن تُشيِّد مجتمعًا مبنيًّا على **العدالة والسلام الاجتماعيّين وتكافؤ الفرص**، وعلى **احترام الأشخاص والدفاع عن حقوقهم**... وهذا ما يسمِّيه الكتاب المقدّس «**شعب ملوك**»، وهذا ما ناشد به البابا بولس السادس أمام هيئة الأُمم المتّحدة، إذ دعا إلى «**حضارة المحبّة**». فإنّه لَمِن صميم

coptic-books.blogspot.com

دعوة الرهبان، بموجب نذرهم الفقر، أن يساهموا في تشييد مِثل هذا المجتمع وهذه الحضارة. فليس هذا الهدف انحرافًا عن نذرهم، ولكنّه من صميمه، بل ولا معنى لنذرهم إن أغفلوا هذا الهدف.

وإنّ هذا السعي الدؤوب **استباقٌ لملكوت الله** في صميم المجتمعات البشريّة. ففي نهاية تاريخ البشر سيتحقّق ملء هذه الحضارة، غير أنّه يتحقّق تدريجًا من خلال خطوات البشر ولا سيّما الرهبان منهم في هذا المضمار؛ وإن كانت خطوات خفيّة ومتواضعة، إلّا أنّها حقيقيّة وفعّالة، شأنها شأن

<حبّة الخردل... أصغر البُزور>

فتُصبح أكبر الأشجار (متّى ١٣/ ٣١-٣٢). وبهذا المعنى، فإنّ

<ملكوت الله بيننا> (لو ١٧/ ٢١)

حقيقةً، فهو ينمو ويمتدُّ من خلال أصغر أعمال المحبّة، وهذا ما يتطلّب رجاء حقيقيًّا، فمهما كان الملكوت مخفيًّا عن أنظار البشر، إلاّ أنّ الرجاء يثق يقينًا بأنّه ينتشر فعلًا بين البشر. فنذر الفقر يصحبه الرجاء دائمًا.

coptic-books.blogspot.com

٣ - الشرط: التحرُّر من الامتلاك

- البُعد النبويّ -

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

بعد أن استجلينا دافع نذر الفقر - وهو الاقتداء بيسوع المسيح الفقير - وهدفه - وهو مساعدة الفقراء - نُصوِّب نظرنا نحو ما يتطلّبه النذر من **تحرُّر الناذر** من جميع ما يمتلك، وهذا هو **الشرط** الأساسيُّ الذي يتضمّنه النذر. وسنُميِّز جانبي قضيّة التحرُّر: **ضرورته** من جهة، **ومضمونه** من جهة أُخرى. وسيؤدِّي بنا ذلك إلى توضيح **البُعد النبويِّ** الكامن في النذر.

ضرورة التحرُّر

لضرورة التحرُّر جانبان متكاملان: أحدهما سالب، وهو **تحرُّر الناذر ممّا هو نسبيّ** - أي الممتلكات ونتائجها - مقارنةً بما هو مطلق - أي المسيح -؛ وثانيهما **مِصداقيّة أسلوب حياة الناذر** في معاملة الفقراء.

التحرُّر من النسبيّ

إنّ **الامتلاك** (Avoir) غريزة متأصِّلة في الإنسان، فكلُّ شخص يطمع في أن يقتني ممتلكات وأموالًا له ولذويه وأعوانه ووطنه...، وإن كان ذلك على حساب الآخرين. ولا يتوقّف الامتلاك عند هذا الحدّ، لأنّه لا يعرف الحدود، إذ إنّ المُمتلِك يسعى سعيًا دؤوبًا إلى إرضاء غريزة ثانية، ألا وهي **المجد الباطل** (Valoir)، أي إلى التباهي بما يمتلكه، كي يُقدِّره الآخرون ويرفعوا من شأنه ويمدحوه...، بلا أيِّ حدٍّ من الحدود. فيحمله ذلك على إرضاء

coptic-books.blogspot.com

غريزة ثالثة، وهي **التسلُّط على الآخرين** (Pouvoir)، أي إلى استعبادهم واستغلالهم والسيطرة عليهم...، بسبب ما له من ممتلكات وما يسعى إليه من مجد باطل. ولقد صدق حقًّا حُكم بولس النافذ:

<إنّ حُبّ المال أصل كلِّ شرّ> (١ طيم ٦/٩-١٠).

فإنّ **منطق الامتلاك منطق جهنّميٌّ** حقًّا، يستعبد الإنسان؛ وقد قال إسحق السريانيُّ فيه:

«إنّ المتعلِّق بالمقتنيات والملذّات عبدٌ للأوجاع الذميمة».

فلا غرابة بالتالي أن حارب يسوع الغِنى بشِدّة، وصرّح بأنّه يصعب على الغنيّ أن يدخل ملكوت السموات (مر ١٠/٢٣-٢٧ //). وإذا أضاف يسوع أنّ الله قادر على كلِّ شيء، حتّى أن يُدخل الغنيّ الملكوت، فالحقُّ يقال إنّ هذا الخلاص يُظهر قدرة الله العظيمة ورحمته اللامتناهية، إذ يصعب على الغنيّ - وكذلك الأمر على مَن يطلب المجد الباطل (يو ٥/٤٤)، وعلى مَن يتسلّط على إخوته (لو ١٢/٤٥-٤٦) - أن يدخل الملكوت، لأنّ الغنيّ هو في حالة قُصوى من التجارب، فهو مُهدّد دائمًا بالاكتفاء الذاتيّ والأنانيّة وقساوة القلب والاستعباد للمُتعة والملذّات... وقد قال أحد الشيوخ في هذا المضمار:

«مَن لا يستطيع أن يبغض المقتنيات،
لن يقدر أن يبغض نفسه بحسب الوصيّة المسيحيّة».

ولكن، في كلِّ ذلك، تظلُّ الكلمة الأخيرة لرحمة الله الغافرة ولقدرته على هدي الغنيّ[1].

---

(١) للمزيد من الاستفسار عن هذا المنطق، راجع «منطق تأمُّل في رايتين» من كتابنا: **«الرياضات الروحيّة» الإغناطيّة - قراءة معاصرة** - سلسلة «نصوص ودروس إغناطيّة» - دار المشرق - بيروت ١٩٩٩.

coptic-books.blogspot.com

فعندما ينذر الراهب نذر الفقر، فإنّما يتعهّد بألّا يحيا بموجب هذا المنطق الجهنّميّ، بل يسعى أن **يتحرّر** في حياته من هذه الأصنام المُزيّفة، **مُقتديًا** في ذلك **بشخص يسوع المسيح**. فقد عاش يسوع المنطق المضادّ تمامًا، مختارًا **الفقر** ولا الغنى، **والإهانات والذُّلّ والعار** ولا المجد الباطل، **والخدمة المتواضعة** ولا التسلُّط. فهذا المنطق المسيحيُّ يتبنّاه الراهب الناذر الفقر، مُعتبرًا أنّ مُطلق حياته إنّما هو شخص يسوع المسيح، وأنّ جذريّة نمط حياته إنّما هي ما اختاره يسوع من نمط حياتيّ.

ولا يعني التحرُّر ممّا هو نسبيٌّ **احتقارَ الخليقة** عمومًا والمادّة خصوصًا، بداعي أنّها مصدر الشرِّ والخطيئة. وقد تقع الروحانيّات الشرقيّة - منها المسيحيّة ومنها الأسيويّة - في هذا الفخّ، متناسية أنّ الشرّ لا يكمن في المادّة، بل في سوء استخدام الإنسان لها. فإنّ روحنة الإنسان لا تتمُّ برفض المادّة، بل بتجلِّي استخدامها بما يمجِّد الله ويخدم الإنسان.

وعليه، فإنّ الموقفين تجاه الخليقة المذكورين - من امتلاكها بدون فطنة، ومن احتقارها بدون تمييز - **موقفان ينافيان القِيَم الإنجيليّة**. فعلى الراهب أن يتحرّر منهما لكي يتسنّى له أن يؤدِّي **شهادة الفقر** الحسنة، كما نراها الآن.

يعلّمنا **التاريخ** أنّ **تدهور** الأوضاع الكنسيّة أو الرهبانيّة أو الديريّة يعود عادةً إلى **فقدان روح الفقر الإنجيليّ**، فالاعتماد على الأمور البشريّة من دون الثقة بالله. لذلك، فقد ألهم الروح القدس أنطونيوس أن يترهّب حين فقد المجتمع الكنسيُّ حرارته في القرن الثالث، فانحرف منغمسًا في الترف والغِنى. وكذلك الأمر في كنيسة القرن الثالث عشر، فألهم الروح القدس فرنسيس الأسيزيّ ليقاوم غنى الكنيسة ورجال الدين فيها؛ وقد تغنّى بالفقر الإنجيليّ لشدّة

coptic-books.blogspot.com

شغفه به.

ويُعلِّمنا التاريخ أيضًا أنّ **إصلاح** الحياة الكنسيّة أو الرهبانيّة أو الديريّة يبدأ عادةً بإصلاح حياة الفقر، ويتبعه إصلاح سائر الجوانب المنحرفة، لما في الفقر من تأثير في جميع جوانب الحياة.

ويذكّرنا مؤسّسو الرهبانيّات بأنّ **دعوة يسوع إلى الفقر** هي من الثوابت الموجّهة إلى تلاميذه:

<اذهب فبع... ثمّ تعالى واتبعني >
(مر ١٠/ ٢١، راجع لو ١٤/ ٢٥-٣٣).

فتلميذ يسوع فقير مع يسوع الفقير. ويُفهَم هذا بالنسبة إلى المسيحيّين بوجه عامّ، والرهبان بوجه خاصّ:

<تركوا كلّ شيء وتبعوه> (لو ٥/ ١١ و٢٨).

فإنّ للفقر وعدم الامتلاك أثرًا واضحًا لاكتساب الفضائل؛ فعلى نقيض الاقتناء - وهو أصل الشرور - يمكن القول بأنّ **الفقر أصل الفضائل**. وقد قال الأبّا مقاريوس في هذا الصدد:

«الإنسان الذي أقدم على الرهبنة
ولم يتغيّر أوّلًا
ويكفّ عن كلّ اهتمام العالم وجميع شهواته وملذّاته
لن يستطيع أن يصير راهبًا
ولن يبلغ الفضيلة
ولن يمكنه كذلك أن يقف أمام سهام العدوّ
وهي شهوات النفس».

وقال الأبّا موسى من جهته:

«حبُّ المقتنيات يُزعج العقل، والزهد فيها يمنحه استنارة».

ومِن أروع ما قيل في الفقر - بصفته **فضيلة الفضائل** - كلمات

coptic-books.blogspot.com

لفرنسيس الأسيزيّ الذي أسّس في القرن الثالث عشر رهبانيّة الإخوة الصغار المستعطين على أساس الفقر تمثُّلًا بيسوع الفقير:

«إنّ **فضيلة الفقر هي ملِكة جميع الفضائل بأسرها**، لأنّها الفضيلة التي لمعت بنوع عجيب في **يسوع** ملك الملوك وفي **مريم** الملكة أمِّه».

«الفقر هو **الفضيلة** التي تُمكِّن النفس - وهي لا تزال في الأرض - من **مُحادثة الملائكة**. وهي التي **رافقت المسيح** على عود الصليب، ومع المسيح دُفنت، ومع المسيح قامت، ومع المسيح صعدت إلى السماء. وهي التي تمنح النفوس المُحِبّة - وهي لا تزال في الأرض - **الأجنحة لتُحلِّق في الأعالي**. وأخيرًا هي **الحارِس المُسلَّح** الذي يحمي صداقتنا مع الله، كما يحمي فضيلتي **التواضع والمحبّة**».

«كونوا على يقين، يا أبنائي، من أنّ **فضيلة الفقر** هي طريق فريدة من نوعها، فهي تؤدِّي إلى **الخلاص** لأنّها تُغذِّي فينا **التواضع**، وهي أصل **الكمال**. ولمّا كانت ثمار هذه الفضيلة كثيرة، مع أنّها في الوقت نفسه خفيّة، كانت **الكنزَ المخفيّ** الذي يحدِّثنا عنه الإنجيل والذي يستحقُّ منّا - في سبيل الحصول عليه - أن نبيع كلّ شيء؛ وما لا يُمكن بيعه يستوجب منّا الازدراء بالمقارنة إليه».

ويتمُّ التحرُّر من المادّة **حبًّا لله**، وهو الدافع لترك كلِّ امتلاك واقتناء:

«ازهد بالدنيا لحبِّك لله» (أفرام السريانيّ).

«إنّ مُحِبِّي المسيح الذين أرادوه قد تركوا نعيم الدنيا وملذّاتها فصارت منزلةُ العالم عندهم كمنزلة العويد الصغير فلم يتألّموا من فقدان شيء منه» (الأبّا مقاريوس).

coptic-books.blogspot.com

وبناء على ذلك، ترك تلاميذ يسوع كلّ شيء وتحرّروا من كلِّ شيء فتبعوه وتتلمذوا له.

مِصداقيّة أُسلوب الحياة

وللتحرُّر أثر بالغ، لا في حياة الراهب فحسب، بل في مَن يساعدهم أيضًا أو يخدمهم أو يتضامن معهم. فقد وجدنا أنّ للرغبة في الامتلاك أثرًا في العلاقة مع الآخرين - من مجد باطل وروح تسلُّطيّة -، وبالتالي، فإنّ الغنيّ يفقد مصداقيّته لدى الفقراء. وعلى نقيض ذلك، فإنّ **للراهب المُتجرِّد مصداقيّةً كبيرة لدى الفقراء**، إذ إنّهم يرون نمط حياته المُتجرِّدة القريبة من نمط حياتهم، **فيثقون** بشخصه وبما يعمله في سبيلهم. هكذا نرى حقيقةً أنّ التجرُّد **شرط** أساسيٌّ يخدم **الهدف** وهو العلاقة بالفقراء. فعلينا أن نذكر دائمًا ذلك عندما نتحدّث عن التجرُّد، فنضعه في نِصابه الحقيقيّ.

فالفقر الاختياريُّ يولِّد **فرحًا عظيمًا**: فرح **الحرّيّة الداخليّة** تجاه المخلوقات والمادّة والمقتنيات؛ فرح **الإعجاب والدهشة أمام الخليقة** كما خرجت من يد الله، وما الخليقة سوى انعكاس لبهاء المسيح وهو بكر الخلائق كلِّها؛ فرح الاعتراف بأنّ **كيان الإنسان أعظم من ممتلكاته**، فالفقير يمتلك ذاته، بيد أنّ الغنيّ يمتلك كلّ شيء ما عدا ذاته؛ فرح **العطاء والمشاركة**، وقد عبّر مَثل شعبيٌّ لاتينيٌّ عن ذلك خير تعبير:

«Ego sum pauper «أنا فقير
Nihil habeo لا أملك شيئًا
Omnia dabo» سأُعطي كلّ شيء».

ويقول مَثل هنديٌّ قولًا مُماثلًا:

«ما لم يُعطَ فهو مفقود».

coptic-books.blogspot.com

ومعناه أنّ ما سيُحسب للإنسان في نهاية حياته هو ما قد أعطاه فعلًا في أثناء حياته الأرضيّة؛ وأمّا الباقي، فسيكون مفقودًا، لا قيمة له.

وإنّ هذين المَثلين الشعبيين هما صدى لكلمة بولس:

<نُحسَب... فقراء ونحن نُغني كثيرًا من الناس
لا شيء لنا ونحن نملك كلّ شيء> (٢ قور ٦/ ١٠).

فبمقدور الإنسان أن يعطي كلّ شيء، لا بل أن يهب ذاته كلّها بقدر ما هو فقير حُرٌّ مشارِك. ففي نهاية الأمر، من الواضح أنّ **الفقر الحقيقيّ غِنى** قد طوّب يسوع أصحابَه عندما تحدّث عن <الفقراء بالروح> (متّى ٥/ ٣). ولذلك اعتبر إغناطيوس دي لويولا الفقر الرهبانيّ «فقرًا ملؤه الفرح».

مضمون التحرُّر

يتضمّن تحرُّر الراهب عدّة **مجالات**، نذكر منها:

الزُّهد في نمط الحياة

إنّ الفقر الفعليّ يظهر أوّلًا على **مستوى المعيشة اليوميّة** من سكن ومأكل ومشرب وملبس ووسائل نقل وراحة وترفيه... فالراهب المتجرِّد الناذر الفقرَ يسعى إلى أن يعيش مثلما يعيش الفقراء، فيتبنّى أسلوب حياتهم البسيط والفقير والذي ينقصه الضروريُّ في بعض الأحيان. فإذا كان لا يتوصّل إلى هذا الحدِّ من الفقر الفعليّ الحقيقيّ - أو أقلّه يحاول أن يقترب منه، فيختبر العوز والنُّقصان - فإنّه يخالف روح نذره الرهبانيّ، علاوة على أنّه يفقد مصداقيّته لدى الفقراء. فيتوجّب على فقره أن **يظهر** ظهورًا واضحًا في وسط مَن يعايشهم أو يخدمهم أو يساعدهم، ظهورًا يتناول **شخصه وجماعته الرهبانيّة** في أسلوب المعيشة وفي نمط العمل وفي

coptic-books.blogspot.com

استخدام الوقت. . .

الحقُّ يقال إنّ مستويات المعيشة تختلف من بيئة إلى بيئة، من بلد إلى بلد، من زمن إلى زمن. . . لذلك، فإنّ **مستوى المعيشة أمرٌ نسبيٌّ** يخضع لثلاثة **معايير**:

أحدها **متوسِّط معيشة الفئة** التي يعيش الرهبان في وسطها أو التي يخدمونها، فلا يصبح الفرق في مستوى المعيشة صارخًا.

وهناك معيار آخر، وهو **شهادة الفقر الجماعيّة**، حيث إنّ الجماعة الرهبانيّة تحدِّد نمط حياتها الجماعيّة المناسب لنذر الفقر من جهة، وللفئة التي تعايشها من جهة أخرى، فتشهد للخارج أنّها اختارت الفقر اختيارًا حياتيًّا وعمليًّا.

وهناك معيار ثالث، وهو **تطلُّب الراهب** نفسه في أن يعيش فقيرًا في الحقيقة، بغَضِّ النظر عن فئة الفقراء الذين يعايشهم؛ فهذا صعيد روحيٌّ تصوُّفيّ، مقياسُه الحقيقيُّ هو علاقته التصوُّفيّة بيسوع المسيح، ورغبته في الاقتداء به فقيرًا، وأمانته لدعوته الشخصيّة.

مرجعيّة التصرُّف في المال

لا يتعلّق نذر الفقر بعدم الامتلاك فقط، بل **بعدم المرجعيّة الذاتيّة في المصروفات** أيضًا. فلأنّ الراهب لا يملك شيئًا، فإنّه يتقبّل من غيره ما هو بحاجة إليه، بدون أيِّ حقٍّ مُكتسَب، وذلك بحسب كلمة بولس:

<أيُّ شيء لك لم تنله؟> (١ قور ٤/٧).

وإنّ الرهبان الذين سبق لهم أن عملوا وكسبوا مالًا وتصرّفوا فيه بحسب إرادتهم الشخصيّة قبل دخولهم الرهبنة، يجدون صعوبة جمّة في أن **يطلبوا من المسؤول** ما هم بحاجة إليه، وأن **يستأذنوه**

coptic-books.blogspot.com

عندما يريدون أن يشتروا شيئًا، وأن **يُقدِّموا إليه حساباتهم الماليّة** من إيرادات ومصروفات... فإنّما كلُّ ذلك تعبير عن أنّ الراهب ليس هو المرجع، بلْ غيره، وذلك بموجب نذره الفقر. ويتطلّب منه ذلك **نضوجًا** حقيقيًّا يصل إليه تدريجًا في حياته الرهبانيّة.

عدم الضمان

إنّ **عدم الضمان في القوت اليوميّ**، وفي **العمل والسكن والعلاج**، وكذلك في **مُفاجآت الحياة والمستقبل**...، لَمِن وجوه الفقر التي يعيشها الفقراء فعلًا. فمَن نذر الفقر اختار أن يعيش هو أيضًا عدم ضمان المستقبل، على مثال الفقراء. والحال أنّ سواد الرهبان يعيشون فعلًا ضمانًا كاملًا في وجوه الحياة هذه؛ الأمر الذي يستدعي فحص ضمير مستمرٍّ لتُطابق حياتُهم نذرَهم، بالإضافة إلى أهمِّيَّة اختبار **الحرمان** التطوُّعيِّ ممّا هو ضروريٌّ لتعويض ما ينقُص من اختبار عدم الضمان.

ومن وجوه عدم الضمان الذي يعيشه الرهبان فعلًا، **الحركيّة في خدمتهم**، إذ إنّ الطاعة الرهبانيّة تطلب منهم أن يتركوا خدمة مُعيّنة، ومدينة معيّنة، وجماعة معيّنة، وأشخاصًا معيّنين... للقيام بخدمة أخرى، في مكان آخر، مع أشخاص آخرين... فهذه الحركيّة، وقد عاشها يسوع، هي وجه من وجوه عدم الضمان، وهي تتطلّب **روح تأهُّب واستعداد**.

وكذلك الأمر في ما يتعلّق **بالأمانة في الخدمة**، فهي تُعوِّض جوانب الضمان التي تؤمِّنه الحياة الرهبانيّة. فليس الرهبان موظَّفين يؤدُّون عملهم، ولكنّهم مدعوُّون إلى أن يقوموا به بأمانة كاملة، فتصبح أمانتهم هذه علامة **التزامهم** الكلِّيِّ لخدمة الآخرين، ولا سيّما الفقراء منهم.

coptic-books.blogspot.com

الفقر وبُعده النبويّ

إنّ النبيّ رجل الحاضر، فإنّه يقرأ **تصرُّفات البشر** في ضوء **عهد الله ومشيئته وملكوته**، مُندِّدًا بما فيها من مُخالَفة لله، ومشجِّعًا إيّاهم على الأمانة له. ولقد شدّد المجمع الڤاتيكانيّ الثاني على بُعد الحياة الرهبانيّة النبويّ، فالرهبان أنبياء بحياتهم وباختيارهم - من خلال النذور - **نمطَ حياة إنجيليّة بوجه جذريّ**[٢]. فكيف يعيش الرهبان هذا البُعد النبويّ في ما يختصُّ بنذر الفقر؟ إنّنا ننطلق من ماضي الإنسان القديم، لنصل إلى حاضر الإنسان الجديد، لنتطلّع إلى مستقبله:

التنديد بالقِيَم البشريّة المخالفة للإنجيل

لقد رأينا **قِيَم الشرِّير** - من امتلاك ومجد باطل وتسلُّط - العاملة في صميم حياة البشر ومجتمعاتهم البشريّة. كما أنّنا رأينا كيف أنّ الرهبان يتبنّون نمط حياة مبنيًّا على **قِيَم الإنجيل** - من اختيار الفقر وتحمُّل الإهانات والقيام بالخدمة المتواضعة -. وعليه، فإنّ نذرهم الفقرَ هو بمثابة **صرخة حياتيّة نبويّة** تُندِّد بكلِّ ما يخالف قِيَم الإنجيل.

فإنّهم يواجهون المجتمعات البشريّة **بلغة الأنبياء**، ولا سيّما بلهجة يوحنّا المعمدان الحازمة:

> يا أولاد الأفاعي، مَن أراكم سبيل الهرب من الغضب الآتي؟ فأثمروا إذًا ثمرًا يدلُّ على توبتكم... >
> (لو ٣/ ٧-١٤).

ولقد استهلّ يسوع النبيُّ أيضًا رسالته بصرخة الأنبياء:

---

(٢) راجع الفصل الثامن من **هويّة الحياة الرهبانيّة**.

coptic-books.blogspot.com

<حان الوقت واقترب ملكوت الله، فتوبوا> (مر ١/ ١٥).

غير أنّ لغة الرهبان ليست حتمًا بالكلام، بل هي أكثر ما تكون **لغةُ شهادتهم الحياتيّة**، بمعنى أنّ نذرهم الفقرَ ونمط حياتهم الفقير واهتمامهم بالفقراء هي بمثابة **صرخة نبويّة** موجّهة إلى الناس، لكي يبتعدوا عمّا يخالف قِيَم الإنجيل، ويعيشوا الفقر الإنجيليّ.

المُناشدة بالثقة بالله

ولمّا كان سببُ الغِنى وما ينجم عنه من قِيَم وممارسات هو في نهاية الأمر **عدم الثقة بالعناية الإلهيّة**، فإنّ الرهبان يدعون **الأغنياء** - بشهادة حياتهم أكثر منهم بكلامهم - إلى **الثقة بالله** الذي يرزق طيور السماء ويُلبس زنابق الحقول، فكم بالأحرى هو يهتمُّ بأبنائه. فهم يُذكِّرونهم - بشهادة حياتهم أكثر منهم بكلامهم - قول يسوع:

<اطلبوا أوّلًا ملكوت (الله) وبرّه...>

<لا يهمّكم أمر الغد...> (متّى ٦/ ٢٥-٣٤).

كما أنّهم يردِّدون لهم طلب الصلاة الربّانيّة:

<ارزقنا اليوم خبز يومنا> (متّى ٦/ ١١).

لأنّ الله لا يريد أن يدّخر الإنسان، كما حاول العبرانيُّون أن يدّخروا المنّ في البرِّيّة لليوم التالي خوفًا من العوز، وكما تفعله حضارتنا اليوم. وهذا ما يُسمِّيه يوحنّا

<كرياء الغِنى> (١ يو ٢/ ١٦)

وتحاشيًا لذلك، يوصي يعقوب:

<ليفتخر... الغنيُّ بتواضعه> (يع ١/ ٩-١٠).

كما أنّ الأبّا أنطونيوس يوصي:

«إيّاك، يا ابني، أن تجعل لك اتّكالًا على المال ولكن اتّكِل على المسيح».

coptic-books.blogspot.com

كما قال أحد الشيوخ لتلميذه:

«إن احتفظتَ بالدنانير، فسوف يكون رجاؤك فيها
فإن هي نفدت، فإنّ الله لن يهتمّ بك ولن يعينك».

وقريبًا منّا، قال خوري آرْس:

«يُعتبر الإنسان فقيرًا
إذا كان محتاجًا إلى أن يطلب كلّ شيء إلى الله».

وفضلًا عن ذلك، فإنّ **الشكر** لله من علامات الفقر، لأنّ الشكر تعبير عن أنّ كلّ شيء عطيّة مجّانيّة من الله يتقبّلها الفقير فقط من الله بدون أن يمتلكها أو يختلسها.

وتجاه **الفقراء**، فإنّ الرهبان يشجّعونهم على الإيمان بأنّ **الله ينصرهم** بوجه خاصّ:

<كشف عن شدّة ساعده فشتّت المتكبِّرين في قلوبهم.
حطّ الأقوياء عن العروش ورفع الوضعاء
أشبع الجياع من الخيرات، والأغنياء صرفهم فارغين
نصر عبده... > (لو ٢/ ٥٠-٥٤).

فالله ينصرهم لأنّ الفقر علامة واضحة - وإن كانت موقّتة - **لفشل قصد الله الأزليّ** في حياة البشر، في حين أنّ مشيئته المطلقة هي أن **تتحقّق محبّته** في ما بينهم، لأنّه إله المحبّة.

استباق الملكوت

وبالفقر الاختياريّ الحياتيّ، يشهد الرهبان أنّ

<**موطننا في السموات**، ومنها **ننتظر مجيء المخلِّص**
الربّ يسوع المسيح> (فل ٣/ ٢٠).

وحياتنا في الأرض تؤدّي بنا إليها، إذ

<نسعى إلى مدينة المستقبل> (عب ١٣/ ١٤).

coptic-books.blogspot.com

وإنّ مُبرِّر الدعوة إلى التوبة هو أنّ ملكوت الله قد اقترب. وإنّ هذا **الملكوت** هو **للفقراء** (لو ٦/ ٢٠)، **ويعسر على الأغنياء دخوله** (مر ١٠/ ٢٣). فذلك ما يشهد له الرهبان، بحياتهم أكثر منهم بكلامهم.

ولقد عبّر بولس عن هذه **الحقيقة الإسكتولوجيّة** إذ وصف وضع المسيحيِّين، الأمر الذي يُمكننا تطبيقه حرفيًّا على الرهبان:

<إنّ **الزمان يتقاصر**: فمنذ الآن، ليكن الذين لهم امرأة كأنّهم لا امرأة لهم. والذين يبكون كأنّهم لا يبكون، والذين يفرحون كأنّهم لا يفرحون، **والذين يشترون كأنّهم لا يملكون**، والذين يستفيدون من هذا العالم كأنّهم لا يستفيدون حقًّا، لأنّ **صورة هذا العالم في زوال**> (١ قور ٧/ ٢٩-٣١).

فإنّ الرهبان **يستبقون الملكوت** إذ يسعون أن يُشيِّدوا على وجه الأرض، منذ الدهر الحاليّ،

<السماء الجديدة والأرض الجديدة> (رؤ ٢١/ ١)

ومجتمَعًا مبنيًّا على العدالة والسلام والوفاق بين البشر، وحضارة مُشيّدة على المحبّة، كما سبق أن رأيناه في البُعد الملكيّ. فبهذا المعنى، يمكننا القول بأنّهم يستبقون من الآن - وإن كان بصورة غير كاملة - ما سيتمُّ في الملكوت - بصورة كاملة تشمل جميع البشر -.

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

٤ - الفقر

في الرهبانيّة اليسوعيّة

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

تعيش الرهبانيّة اليسوعيّة نذر الفقر في مُلتقى **تطلُّبين**، أحدهما **تقليديّ** في الحياة الرهبانيّة، وثانيهما **خاصٌّ** بها؛ أحدهما قديم، والآخر جديد: فهناك **الأمانة للفقر الإنجيليّ الجذريّ** كما تمارسه سائر الرهبانيّات وتلتزمه وتشهد له. وهناك **التجاوب مع حاجات الخدمة الرسوليّة** التي تفرض نمطًا معيّنًا من الفقر الإنجيليّ، بقدر ما الرهبانيّة اليسوعيّة رهبانيّة خِدَميّة تجنِّد وتسخِّر جميع طاقاتها في سبيلها وتعتبر نذورها موجّهة للرسالة.

إنّ **حياة إغناطيوس دي لويولا** مؤسّسها (١٤٩١-١٥٥٦)، **وتاريخ نشأة الرهبانيّة** (١٥٤٠)، حتّى **تاريخنا المعاصر**، كلُّها تقرُّ بجذريّة **الفقر الإنجيليّ** في نمطٍ **رسوليّ**. فسنُبيِّن هذا الازدواج اليسوعيّ في أربع مراحل: حياة إغناطيوس نفسها، جماعة الرِّفاق الأوّلين، المجامع العامّة المعاصرة، لنستخلص بعض العبارات التي تُعبِّر عن الفقر اليسوعيّ.

إغناطيوس الفقير

يُميِّز المؤرِّخون **عدّة مراحل** في **حياة إغناطيوس الفقير** نتوخّى توضيحها ودراستها:

السائح الفقير

* **لويولا**: عندما اهتدى إغناطيوس إلى المسيح في لويولا، بعد إصابته في معركة پامْپلونة (١٥٢١)، تأثّر تأثُّرًا بالغًا بمَثل

coptic-books.blogspot.com

القدِّيسين الذين عاشوا الفقر - ولا سيّما أونوفْرِيوس من آباء البرِّيّة الشرقيّة، وفرنسيس وعبد الأحد مؤسِّسَيْ رهبانيّتين مُتسوِّلتين - فأراد أن يتمثّل بهم بل وأن يُنافسهم في ممارسة الفقر. ويروي هو نفسه ذلك في «الذكريات الشخصيّة» (ذش):

«شرع في التفكير الجدِّيِّ في حياته الماضية، وفي ما يتحتّم عليه من واجب التوبة عنها. ونشأت وقتئذ في قلبه رغبة في الاقتداء بالقدِّيسين، ولم يكن ليُبالي بظروفهم الخاصّة، بل عزم في نفسه أن يعمل بعون الله ما عملوه هم. إلّا أنّ رغبته الوحيدة كانت (...) في أن يحجّ إلى أورشليم حالًا بعد شفائه، فارضًا على نفسه جميع ألوان التقشُّفات والأصوام المُمكن أن يتمنّاها قلبٌ سخيٌّ ومُضطرم بحبِّ الله» (ذش العدد ٩).

* **مونْسِرّاتا**: بدأ حياة التقشُّف في السنة ١٥٢٢: فإذ كان «أمام مذبح سيِّدة مونسرّاتا، قرّر أن يخلع ملابسه ليرتدي أسلحة يسوع المسح... وإذ خيّم ظلام الليل، ذهب إلى أحد الفقراء بغاية ما أمكنه من السرِّيَّة، فخلع ثيابه وأعطاه إيّاها، ثمّ لبس ثوبًا طالما اشتاق إليه» (العدد ١٨).

* **مَنْريسّا**: قاوم عاداته الماضية في السنة عينها، فإذ «كان - بحسب عادة عصره - يُكثر الاعتناء بشعره - وكان جميلًا - عزم على أن يتركه ينمو وفقًا لطبيعته، فلا يمشِّطه ولا يقصُّه ولا يُغطِّيه، لا ليلًا ولا نهارًا. وللسبب عينه، ترك أظافر قدميه ويديه تنمو، لأنّه كان قد بالغ في الاعتناء بها» (العدد ١٩).

وفضلًا عن ذلك، فإنّه أقام في مستشفى، وكانت المستشفيات حينذاك أماكن تجمع الفقراء والمتسوِّلين والذين لا مأوى لهم. كما

coptic-books.blogspot.com

أنّه امتنع عن أكل اللحم. . .

ولكنّه، في السنة ١٥٢٣، إذ كان يتعامل مع النفوس ويتحدّث إليهم «أحاديث روحيّة»،

«ترك المُمارسات المُفرطة التي تعاطاها سابقًا، ومُذ ذلك الحين قصّ أظافره وشعره» (العدد ٢٩).

فنجد من خلال هذا التغيير في ممارسة الفقر، أنّه شرع يأخذ بعين الاعتبار «خدمته تعالى» (العدد ٢٧) بخدمته النفوس. وذلك نواة الفقر الرسوليّ الذي بدّل نمط فقره، لا روح فقره كما سنراه لاحقًا.

* **السائح إلى أورشليم**: حقّق هاجسه الروحيّ بالحجّ إلى أورشليم مُستعدًّا له في سنتي ١٥٢٣ و١٥٢٤. وقد رفض أن يُرافقه مرافق:

«فلو أخذ رفيقًا لانتظر منه المساعدة إذا جاع، والنجدة للنهوض إذا سقط. فيكون - والحالة هذه - قد وضع ثقته فيه. وأمّا هو، فلا يريد أن يضع هذه الثقة وهذه العاطفة وهذا الرجاء إلّا في الله وحده. وكان قوله هذا يشعر به في قلبه» (العدد ٣٥).

وكذلك، لم يُرد أن يتزوّد بأيِّ زاد،

«متمنّيًا أن يتبع طريق الكمال، وأن يعمل ما يؤول بالأكثر إلى تمجيد الله، ذاكرًا ما هي الأسباب التي تجعله يتردّد في أخذ الزاد» (العدد ٣٦).

وإذ استعطى خُبزًا مُجفّفًا للطريق، مُطيعًا أمر مُعرِّفه،

«لاحظ - وهو على الشاطئ - أنّه لا يزال حاملًا خمس قطع أو سِتًّا من النُّقود، ممّا حصل عليه وهو يستعطي على

coptic-books.blogspot.com

الأبواب، كما كانت طريقته في اكتساب معيشته. فترك النُّقود على مقعد هناك عند الشاطئ» (العدد ٣٦).

واستمرّ في ممارسة فضيلة الفقر الإنجيليّ بجذريّته بعد حجِّه إلى أورشليم، فقام بعدّة مُجازفات مرجعها **ثقته بالله**، منها قبولُه نقودًا ثمّ توزيعها على الفقراء (العدد ٥٠)، ورفضُه الطريق الآمنة (العدد ٥١)، وعزمُه على عدم استخدام علامات الاحترام ممّا جعل الناس يعتبرونه مجنونًا (العدد ٥٣)...

الدارس الفقير

إلّا أنّ رغبته في **خدمة النفوس** استحوذت عليه:

«رجح ميلُه إلى الدرس ردحًا من الزمن، حتّى يستطيع أن يُساعد النفوس» (العدد ٥٠).

فتحوّل نمط ممارسته الفقر في أثناء دروسه في إسپانيا (١٥٢٤-١٥٢٧) ثمّ في پاريس (١٥٢٨-١٥٣٥). ففي سبيل الدرس، قبِل تطوُّعَ أُستاذ أن يُعلِّمه مجّانًا وتطوُّعَ امرأة تقيّة أن تُزوِّده بحاجاته المادّيّة، وذلك حتّى يتسنّى له أن ينصرف إلى الدرس في سبيل مُساعدة النفوس (العدد ٥٤). ولمّا سرقه أحد زملائه، عاد فاستعطى وترك بيته ووجد مأوى في مستشفى مع الفقراء؛ غير أنّ ذلك أعاق تقدُّمه في الدرس، فعزم على خدمة الأساتذة جريًا على عادة عصره. ولمّا لم يجد عملًا، قرّر أن يعمل صيفًا ليجني ما يُمكّنه من الدرس طوال السنة (الأعداد ٧٣-٧٦).

وبالمِثل،

«عاودته الرغبة في أن يرجع إلى تقشُّفاته الماضية بفتح ثقب في نعله، وكان يُوسِّعه شيئًا فشيئًا، حتّى إنّه لم يبقَ من حذائه -

coptic-books.blogspot.com

عند إقبال برد الشِّتاء - إلّا الجزء الأعلى» (العدد ٥٥).

غير أنّ الفِطنة وجّهته في ما بعد، ولا سيّما ليستطيع الجسد أن يخدم القريب (**القوانين التأسيسيّة** العدد ٥٨٢).

وعليه، فقد ميّز أنّ الدرس يتطلّب حدًّا أدنى من **الاستقرار والتنظيم**، فقبِل مساعدات ثابتة، ولكنّه احتفظ بنمط حياتيّ بسيط، بساطة الإنجيل نفسه. وسنجد أثر خبرة الفقر هذه في نظام الدارسين اليسوعيِّين عند تأسيس الرهبانيّة.

ولقد ظهرت **روح فقره**، لا في الفقر المادِّيِّ فحسب، ولا في الفقر الروحيّ من ثقة بالله فحسب، بل أيضًا في قبوله «**الدرس مع الصِّغار**» وكان سِنُّه تتجاوز الثلاثين عامًا (العدد ٧٣). وفضلًا عن ذلك، فقد ترجم رغبته في الفقر في **علاقته بالثقافة**، ذلك بأنّه درس في غُضون النهضة الأوروبِّيّة التي أولت الثقافة أهمِّيّة بالغة؛ وأمّا هو، فلم تستعبده الثقافة - مع جدِّيّته الفائقة في الدرس - بل استخدمها لخدمة النفوس فتمجيد الله؛ فلم يدرس لكي يتباهى بالثقافة ويتميّز عن سواه - مع تفوُّقه فيها - بل سخّرها لمساعدة القريب.

الرهبانيّة الناشئة الفقيرة

الفقر في الخدمة والمعيشة

توطّدت علاقة إغناطيوس ببعض زملاء الدراسة، فكوّنوا في باريس جماعة «الرِّفاق» العشرة، منهم فرنسيس كسفاريوس. وأخذوا **يخدمون** معًا بدءًا من السنة ١٥٣٧: «تفرّقوا ليخدموا في مستشفيات مختلفة». وقد اختاروا **نمطًا حياتيًّا فقيرًا**: «كانوا يستعطون». ثمّ إنّهم «رُسموا على أساس الفقر، وقد نذر الجميع

coptic-books.blogspot.com

الفقر والعفّة» (العدد ٩٣). ففيما كان الإكليرس في هذا الوقت غنيًّا يتحلّى بميزات مادّيّة واجتماعيّة وكنسيّة كثيرة، فضّل الرِّفاق حياة الفقر في **خدمتهم** وفي **أسلوب حياتهم** البسيطة، فوضعوا ثقتهم بالله واعتمدوا على العناية الإلهيّة، لا على الضمانات البشريّة ولا على السلطة والقوّة والنفوذ، شأنهم شأن مَن سبقوهم من الفرنسيسيِّين والدومنيكيِّين.

بين الفقر والحركيّة

وممّا يُذكر أنّهم تبنّوا نمط **الحركيّة الرسوليّة**، وقد شرحته «القوانين التأسيسيّة» (ق ت):

«إنّ دعوتنا تقوم على أن **نذهب إلى مُختلف البُلدان، ونعيش في شتّى مناطق العالم** حيثما تُرجى فائدة لتمجيد الله تمجيدًا أعظم وخير النُّفوس خيرًا أوفر» (ق ت العدد ٣٠٨).

فتمثّلوا بطريقة الرسل المبنيّة على وصيّة المسيح: <**إذهبوا** في الأرض كلِّها...> (مر ١٦/ ١٥)، وقد حقّقها يسوع نفسه إذ لم يكن له <ما يضع عليه رأسه> (متّى ٨/ ٢٠). فإنّ الحركيّة الرسوليّة لون من ألوان الفقر الذي مارسه الرِّفاق العشرة.

الرسالة في الفقر

أضِف إلى ذلك كونهم اختاروا **وسائل رسوليّة فقيرة**، فلم يقبلوا الألقاب الشرفيّة، ولا توصيات كِبار عصرهم، بل آثروا **الخدمات المجّانيّة**:

«لا يجوز لنا - مع أنّ ذلك يجوز لغيرنا - أن نقبل أيّ بدل، أيّة حسنة... علينا ألّا نقبلها من أيِّ أحد غير الله ربِّنا، وهو الذي لخدمته فقط يجب علينا أن نعمل كلّ شيء» (ق ت العدد ٤).

coptic-books.blogspot.com

«نرفض كلّ دخل أو تملُّك، أو كلّ أجر للوعظ أو التعليم أو لإقامة القداديس أو توزيع الأسرار، أو لكلِّ عمل روحيّ...، واستخدام المدارس لفائدتنا» (ق ت العدد ٨١٦، راجع العدد ٣٣١).

أُسلوب المعيشة الفقير

وكان **أسلوب معيشتهم** نفسه يُطابق خدمتهم بالوسائل الفقيرة، فاتّسم بالبساطة الكبيرة، فرفضوا امتلاك أديرة فخمة مُحصّنة، وفضّلوا المعيشة في أديرة بسيطة فقيرة، فتقاسموا «نصيب الفقراء» (ق ت العدد ٨١، راجع الأعداد ٢٨٥ و٣٣١ و٣٩٠ و٥٧٥ و٥٧٧ و٥٨٠).

خدمة الفُقراء

لم يقتصر حبُّ الرِّفاق للفقر على ما سبق، بل تجاوزه في **خدمتهم للفُقراء، كأولويّة رسوليّة**. فممّا يلفت النظر أنّ الخدمات التي قام بها إغناطيوس والرِّفاق كانت تجمع بين الخدمات الروحيّة من جهة - الوعظ، والتعليم الدينيّ، والإرشاد الروحيّ، وتوزيع الأسرار... - ومن جهة أُخرى ما يُمكننا أن نسمِّيه بلغة عصرنا **الخدمات الاجتماعيّة** أو **الخيريّة**: زيارة المستشفيات والسُّجون، وتعليم الأُمِّيِّين، ومُساعدة المحتاجين ماديًّا، وممارسة أعمال الرحمة والمحبّة... (راجع **صيغة نظام الرهبانيّة اليسوعيّة - براءة البابا يوليوس الثالث** في ٢١/٧/١٥٥٠، في مطلع «القوانين التأسيسيّة». راجع أيضًا ق ت العدد ٦٥٠).

الفقر ونمُوُّ الرهبانيّة

وفرضت على الرِّفاق ظروفُ **نموِّهم** العدديِّ والخِدَميِّ، والتنظيميِّ والمؤسَّسيِّ أن يمتلكوا أديرة ومباني، حوّلت **أُسلوب**

coptic-books.blogspot.com

الفقر، لا روحه. فلم يعُد من الممكن التجوُّل من مدينة إلى مدينة للخدمة، بل حتّمت الخدمة عليهم أن يسكنوا أديرة، وينظِّموا حياتهم الداخليّة والخارجيّة، ويستقبلوا دارسين فيُعدُّوهم ويكوِّنوهم للحياة الرهبانيّة... ولقد اختبر جميع مؤسِّسي الرهبانيّات مثل هذا التحويل، فحاولوا جميعًا أن يحتفظوا **بروح الفقر** ومُتطلِّباته بحسب موهبة البداية، وفي الوقت نفسه أن يُطوِّروا **أسلوب المعيشة** بما يُوافق الظُّروف الجديدة، بروح واقعيّة ولكن بدون المساس إلى جوهر الفقر. فكيف عاشت جماعة الرِّفاق الأُولى هذه المعادلة الصعبة؟ لقد وُفِّق إغناطيوس بين ما اختبره كسائح مُستعطٍ، وكدارس فقير، وكخادم فقير، وهذا ما اختبرته الرهبانيّة الناشئة:

جذريّة الفقر الإنجيليّ

إنّ «**الرِّياضات الروحيّة**» التي وضعها إغناطيوس من مُنطلق اختباره الروحيِّ التصوُّفيّ، والتي مارسها جميع الرِّفاق، تظلُّ مرجع الرهبانيّة اليسوعيّة في ما يتعلّق بالفقر.

ففي «الرياضات الروحيّة» (رر)، يدعو إغناطيوس المتروِّض إلى أن **يُحبّ ويتبع ويقتدي بالمسيح الفقير والمُهان** (راجع الأعداد ٩٨ و١٠٤ و١١٤ و١١٦ و١٤٧، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٧، ١٦٨).

ففي ذلك تظهر **جذريّة الفقر الإنجيليّ** تمثُّلًا بيسوع المسيح الفقير. فروحانيّة الفقر الإغناطيِّ مبنيّة أساسًا على هذه الجذريّة، فليس الفقر بحدِّ ذاته قد جذب إغناطيوس، بل **يسوعُ الفقير**، وإن مرّ قبل ذاك بمرحلة حُبِّ الفقر على مِثال القدِّيسين، ولكنّ ذلك نما واكتمل في حُبِّه وجه يسوع الفقير.

وعليه، فقد سعى الرفاق إلى **التحرُّر** المستمِّر من المُمتلكات والأموال والضمانات...، في **تجرُّد** مستديم منها، ليضعوا ثِقتهم

coptic-books.blogspot.com

الوحيدة والمطلقة والكاملة في الله.

أضف إلى ذلك **البُعد الرسوليّ**: فإنّ تخلّيهم هذا واعتناقهم الفقر الكامل هما بمثابة **شهادة** أعظم تؤثّر في نفوس المخدومين الذين يرون في خادميهم رُهبانًا فُقراء حقيقيّين، فتكتسب خدمتهم أصالة ومصداقيّة كان مُعاصروهم في أمسّ الحاجة إلى مِثلها.

هذه الروحانيّة الإنجيليّة الإغناطيّة الثُّلاثيّة الدوافع - الاقتداء بالمسيح، والاعتماد على الله لا على الأُمور المادّيّة، والفاعليّة الرسوليّة - قد أبرزتها جليًّا «مُشاورة» لرِّفاق الأوّلين المنعقدة في السنة ١٥٤٤ التي أسفرت عن توضيح ملامح **روحانيّة الفقر اليسوعيّة**.

وتطبيقًا لهذه الروح، نصّت «**القوانين التأسيسيّة**» على العيش من **الصدقات** مُقابل القِيام بالخدمات الرسوليّة التي ظلّت **مجّانيّة**، فلا يحقُّ طلب الصدقة بل قبولها فقط (**ق ت** أعداد ٤ و٨٢ و١٤٩ و٣٢٥ و٣٣١ و٣٩٨ و٤٧٨ و٤٩٥ و٤٩٩ و٥٥٧ و٥٦٠ و٥٦٥-٥٦٧ و٦١٠ و٦٤٠ و٨١٦).

نمط الفقر الخاصُّ بالرهبان الدارسين

توصّل إغناطيوس، من خلال خبرته كدارس في برشلونة والقلعة ثمّ في پاريس، إلى ممارسة الفقر بأُسلوب مُختلف عمّا سبق عندما كان سائحًا أو مستعطيًا. فكان يتقبّل **صدقات من مُحسنين** (**ذ ش** العددان ٥٤ و٥٦) ويقوم صيفًا **بعمل** يكفي إيرادُه لتغطية مصاريفه الدراسيّة في أثناء السنة (العدد ٧٦). غير أنّه احتفظ بحزم شديد **بنمط حياتيّ بسيط متواضع فقير** من حيث المسكن والملبس والمأكل والمصروفات (الأعداد ٥٩-٦٠ و٦٤ و٧٤ و٨٤).

ولقد استلهم هذه الخبرة المُعاشة في «القوانين التأسيسيّة» التي

coptic-books.blogspot.com

نصّت على أنّه يحقُّ **لأديرة الدراسة** أن تتنعّم بالامتلاك وبدخل وإيرادات ثابتة. . . - على خلاف أديرة الناذرين - ليتسنّى لها أن تُنفِق على الدارسين في معيشتهم ودروسهم ليتفرّغوا تمامًا لدُروسهم؛ فإنّ «الانصراف إلى العِلم يكاد أن يتناول الإنسان بكامله» (ق ت عدد ٣٤٠)؛ على أن يظلّ نمطُ الحياة رهبانيًّا فيتّسم بالفقر والبساطة كسائر الرُهبان (ق ت أعداد ٥ و٢٩٧ و٣٢٧ و٣٣٠-٣٣٢ و٤١٩ و٥٥٧-٥٦٠ و٧٦٣ و٧٧٤ و٧٩٢ و٨١٦).

الفقر اليسوعيُّ في عالمنا المُعاصر

كيف يُمكن ممارسة روح الفقر الإغناطيّ في أيّامنا هذه حيث إنّ ثمّة **بونًا شاسعًا** بين القرن السادس عشر وقرننا هذا؟

كانت الظُّروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة، والدينيّة والكنسيّة تسمح **بالاستعطاء والعيش من الصدقات** - وقد تأسّست عليها الرهبانيّات المستوّلة، مِثل الفرنسيسكان والدومنيكان - فكانت جميع الخدمات - كالمستشفيات والمدارس والأعمال الخيريّة. . . - تعيش من الصدقات في هذه البلاد المسيحيّة. وأمّا اليوم، فقد تغيّرت جميع هذه الأوضاع، فلم تعُد الصداقات ولا الاستعطاء أمرًا ممكنًا بوجه اعتياديّ، بل تطوّرت الظُّروف تمامًا، فأصبح **العمل** أساسَ الحياة الاقتصاديّة، كما أضحى الاعتماد عليه من علامات تضامُنِ الناذرين مع فقر الفقراء ومشاركتهم في عمل العاملين، بل حتّى من علامات الثقة بالله. وهذا ما وضّحته أربعة **مجامع عامّة** انعقدت في أثناء انعقاد المجمع الڤاتيكانيّ الثاني وفي ما بعده، فأعطت انطلاقة جديدة حاولت الحفاظ على جذريّة **روح الفقر** الإنجيليّ بوجه عامٍّ والفقر الإغناطيّ بوجه خاصّ، وفي الوقت عينه التأقلم مع **الأوضاع المُعاصرة** بدون المساس بروح الفقر:

coptic-books.blogspot.com

المجمع العامّ الحادي والثلاثون (١٩٦٥-١٩٦٦)

لقد تأثّر هذا المجمع بتطلُّب المجمع الڤاتيكانيّ الثاني أن تكون الكنيسة **كنيسة فقيرة وكنيسة الفقراء**. ولمّا طالب هذا المجمع المسكونيُّ جميعَ الرهبانيّات بتجديد حياتها الرهبانيّة - وفقًا لموهبة المؤسِّس ولمقتضيات العصر - فقد نفّذ المجمع الحادي والثلاثون هذا المطلب في جميع أوجه الحياة الرهبانيّة، ولا سيّما الفقر، وذلك على ثلاثة صُعُد: الصعيد الروحيّ والجماعيّ والقانونيّ (راجع القرار ١٨).

* **الصعيد الروحيّ**: أكّد المجمع **قيمة الفقر الإنجيليّة والرهبانيّة** ليكون الرُّهبان تلاميذ يسوع ورفاقه حقًّا، مُقتدين به في فقره، وشهودًا على أولويّة الملكوت. كما أنّه ذكّر أنّ **الفقر اليسوعيّ رسوليّ**: «التبشير في الفقر» (رسالة القدِّيس إغناطيوس بتاريخ ١٢/ ١٥٣٦/٢). ووضّح بعض **معايير** الفقر المعاصر: الصِّدق في الفقر، والجدِّيّة في العمل تضامنًا مع البشر العاملين، والمحبّة السخيّة في خدمة الآخرين، والاهتمام بالفُقراء الأكثر احتياجًا في عالمنا هذا.

وامتدادًا للمجمع، وضّح الرئيس العامُّ بعض معايير نذر الفقر، أهمُّها بوجه خاصٍّ السعي الدؤوب إلى **الاقتراب من أُسلوب حياة الفُقراء**، وذلك في المأكل والملبس والمسكن والسفر وأدوات العمل والخِدمة...

* **الصعيد الجماعيّ**: حثّ المجمع جميع الجماعات في داخل الرهبانيّة على أن تعيش **الفقر بوجه أكمل**، سواء على مستوى الجماعة نفسها أو على مستوى الرُّهبان أنفسهم. وذكّر بأنّ الجماعة اليسوعيّة تعيش **عيشة الرُّسل حول شخص يسوع المسيح** معيشةً

coptic-books.blogspot.com

فقيرة. وشدّد على ضرورة **الشهادة الإنجيليّة** التي تؤدِّيها الجماعات والرُّهبان في خدمتهم لجميع البشر ولا سيّما للفقراء منهم.

* **الصعيد القانونيّ**: عاد المجمع إلى «القوانين التأسيسيّة» التي تذكر أنّ الناذرين النذور الاحتفاليّة «يَعِدون بألّا يفعلوا أيّ شيء من شأنه أن يُبدِّل في القوانين التأسيسيّة ما يختصُّ بالفقر، إلّا **للتشديد عليه** بطريقة تُراعي في الربِّ ما قد يكون من ظُروف»؛ وتضرب مَثل «التوسيع» في أن يكون للرُّهبان «دخل أو ملك لاستعمالهم الشخصيّ...» (ق ت العددان ٥٥٤ و٥٥٥). فأكّد المجمع ثانية عدم إمكان الاعتماد على «دخل ثابت».

وأمّا في صدد **ثمر العمل**، فلقد أقرّ المجمع بإمكان الاعتماد عليه، لأنّ العمل هو سِمة العصر، في ما كانت الصدقات سِمة عصر إغناطيوس.

وأمّا بخصوص **مجّانيّة الخدمات**، فوضّح المجمع غايتها، وهي ثلاثيّة الجوانب: الحرِّيّة الداخليّة تجاه المادِّيّات، والحرِّيّة في العلاقات مع الآخرين، وبُنيان القريب من خلال هذه الحرِّيّة والحُبِّ للمسيح والقريب. وبالتالي، يجوز قبول - ولا اشتراط - صدقات أو حسنات مثلما الأمر هو في الكنيسة عُمومًا، ولكن على شرط بُنيان القريب، وإظهار المحبّة للفقراء. وتطبيقًا لذلك، يجوز تحصيل المصروفات المدرسيّة من طلبة المدارس والجامعات، ولكن مع الاهتمام بالبحث عن شتّى الوسائل ليكون التعليم قدر المستطاع مجّانيًّا.

المجمع العامّ الثاني والثلاثون (١٩٧٤-١٩٧٥)

لقد خصّص هذا المجمع **قرارين** في شأن الفقر: القرار الرابع والقرار الثاني عشر.

coptic-books.blogspot.com

أمّا القرار الرابع، فعُنوانه هو: «**رسالتنا اليوم: خِدمة الإيمان وتعزيز العدالة**». وسبق لنا أن نشرنا في الفصل الثاني مُقتطفا – منه أظهر لنا أهمِّيَّته المرموقة وفحواه. وما نُضيفه هنا هو أنّ هذا القرار شدّد على **هدف** نذر الفقر، ألا وهو **خدمة الفقراء** في عالمنا المُعاصر؛ وترك للقرار القادم الكلامَ على **شرط** نذر الفقر، ألا وهو **روح الفقر الرهبانيّ** وتطبيقها القانونيّ.

فانطلق القرار الثاني عشر هذا ممّا في عالمنا من «**فقر مُدقع وغير إنسانيّ**، لا مادِّيًّا فحسب، بل روحيًّا أيضًا»، وفي الآن عينه **تطلُّع عالمنا إلى تغيير هذا الوجه القاتم**. ومن ثمّ فإنّ هذا الوضع المزدوج هو بمثابة علامة من «**علامات الأزمنة**» للرُّهبان، لا في ما يتعلّق بفضيلة الفقر فقط، بل أيضًا باتّباع **المسيح الفقير العامل مثل سائر البشر، والمُطابق مصيرَه بمصير الفقراء، وخادمهم**؛ فلا ينحصر نذر الفقر في الناحية النسكيّة الضروريّة بلا أدنى شكّ، بل يتجاوزه بالاقتداء بوجه المسيح هذا.

ولفت القرار الانتباه إلى **خطر تعلُّق الجماعات وأعضائها بالمادِّيّات**، وإهمال بُعد **المجّانيّة** في الخدمة، وبُعد **التطويبات**... كما أنّه شجّع على **تأسيس جماعات في وسط الفُقراء**، وعلى **العمل** معهم ولهم، وعلى ضرورة **نمط حياة فقير** يقترب من مُستوى معيشة الذين يخدمهم الرُّهبان ويتعاملون معهم، وكلُّ ذلك في سبيل **مِصداقيّة الشهادة** للمسيح الفقير.

وفصل القرار فصلًا **ماليًّا** كاملًا بين الجماعة الرهبانيّة من جهة، والمؤسّسات الرسوليّة التي تُديرها الجماعة من جهة أخرى. فهذه بوُسعها أن تمتلك إيرادات ثابتة وأن تستثمر رأسمالها، على خلاف تلك التي عليها أن تتخلّى في ختام السنة الماليّة عن الفائض. وعلى جميع الجماعات والمؤسّسات أن تُراعي روح الفقر والتضامن

coptic-books.blogspot.com

في ما بينها والمساعدة المتبادلة.

المجمع الثالث والثلاثون (١٩٨٣)

لم يأتِ هذا المجمع بالجديد، بل ثبّت - في القرار الأوّل - كلام المجمعين السابقين على الفقر. فلقد حثّ على الحُرِّيَّة في سبيل **الاتّحاد بالبشر** عمومًا والفقراء خصوصًا، **ومُشاركتهم** في الخيرات، **والتضامن** معهم، وخِدمتهم خِدمة مجّانيّة وبوسائل فقيرة. وهذه الحُرِّيَّة هي وليدة **حياة فقيرة** جماعيًّا وشخصيًّا، كما أنّها ثمرة **الفقر الروحيّ**.

المجمع الرابع والثلاثون (١٩٩٥)

واجه هذا المجمع تساؤلين تساءلتهما الرهبانيّة: كيف يُمكنها **مُمارسة الفقر** في ضوء المجامع السابقة، وما هي اتّجاهاتها **الواقعيّة** لا النظريّة؟ فعالجهما في القرار التاسع خُصوصًا.

إلاّ أنّ الجانب **الرُّوحيّ النظريّ** لم يُهمله المجمع، فأشار إلى ما في الفقر من **بُعد نبويٍّ** شخصيٍّ وجماعيٍّ (في حين أنّ المجمع الثاني والثلاثين قد ركّز على بُعده **الرسوليّ**): معنى **الرُّوح المجّانيّة** في عالم تسوده الرُّوح النفعيّة؛ ضرورة **اختبار شخصيٍّ** لمُعايشة الفُقراء في سبيل تغيير عقليّتنا ومُمارستنا للفقر، ومُقاومة جميع ألوان الفقر، وأهمِّيَّة اعتبار الفقر «**نعمة**» كما اختبرها إغناطيوس.

وإذ كثيرًا ما تتّسم مُمارسة الفقر **بالفُتور**، فقد شدّد القرار على ضرورة **التوبة** فالتخلّي بروح «التجرُّد وبساطة الحياة والتضامن والمشاركة الأخويّة»؛ وذلك من دون تأنيب ضمير الرُّهبان، بل بالعكس بِحَثِّهم على هذه الرُّوح حثًّا مِلؤه الرجاء والفرح. واعتبر القرار أنّ الفقر **معيار** لمعرفة مَن هو يسوعيّ حقًّا. كما أنّه ذكّر بأنّ للفقر الحقيقيّ **مِصداقيّة رسوليّة**.

coptic-books.blogspot.com

وتطبيقًا لذلك، عرض القرار بعض **التوجيهات العمليّة** لمُمارسة هذه الرُّوح، منها: **الشفافيّة** في الإيرادات والمصروفات الشخصيّة والجماعيّة؛ **التمييز** الشخصيُّ والجماعيُّ الدائم في ما يتعلّق بمُمارسة الفقر فعليًّا وعمليًّا؛ **المُشاركة** في الخيرات المادّيّة؛ **الحُرّيّة** الداخليّة إزاء المؤسّسات الغنيّة التي تُديرها الرهبانيّة.

العبارات الإغناطيّة عن الفقر

إنّ بعض **العبارات الإغناطيّة** تصف الفقر الذي يُلهم الرهبانيّة اليسوعيّة وصفًا يدعو إلى التأمُّل والتعمُّق في سُموِّ معناه وقداسة فضيلته. ونورد أهمّ هذه العبارات:

«راية» المسيح و«شاراته»

لقد سبق أن أوضحنا **جذريّة الفقر الإنجيليّ** في «الرياضات الروحيّة»، من حبِّ المسيح واتِّباعه والاقتداء به فقيرًا مُهانًا. فهذه هي «راية» المسيح أو «مُعسكره» (رر أعداد ١٣٦-١٤٧).

وردّدت «القوانين التأسيسيّة» القناعة عينها:

«إنّه من عظيم الأهمِّيَّة والفائدة أمام خالقنا وربِّنا أن يُلفَت نظر (الراغبين في دُخول الرهبانيّة) إلى كبير الفائدة والعون اللذين يجدونهما في الحياة الروحيّة، إن كرهوا كرهًا تامًّا، لا جزئيًّا، كلّ ما يحبُّه العالم ويعتنقه، وإن قبلوا واشتهوا بكلِّ قِواهم ما أحبّه واعتنقه المسيح ربُّنا... الذين يسيرون في طريق الرُّوح ويتّبعون المسيح ربّنا حقًّا **ويتقلّدون شاراته** لِما له في قُلوبهم من الحُبِّ والإكرام... رغبتهم في أن يتشبّهوا ويقتدوا - ولو قليلًا - بخالقنا وربِّنا يسوع المسيح **ويلبسوا ثوبه وشاراته**، إذ قد سبقَنا ولبسها هو نفسه **لمزيد تقدُّمنا الرُّوحيّ** وصار لنا في ذلك قُدوةٍ لكي نقتدي به في كُلِّ ما نستطيعه بنعمته ونقتفي أثره، وهو الطريق

coptic-books.blogspot.com

الحقيقيُّ الذي يؤدِّي بالبشر إلى الحياة» (ق ت العدد ١٠١).

ففي هذا النصِّ الرائع، بُعدان أساسيّان للفقر: بُعد **الاقتداء بالمسيح الفقير** من جهة: «الشارات»؛ والبُعد **الرسوليّ** من جهة أخرى: اختيار المسيح للفقر والإهانات «لمزيد تقدُّمنا الروحيّ». وكلا البُعدين معًا يُمثِّلان سِمة الفقر الإغناطيّ.

الفقر «نِعمة»

لقد اعتبر إغناطيوس الفقر في «الرِّياضات الروحيّة» **نِعمة ينبغي طلبها بإلحاح**. فالمتروِّض، عندما «يُريد ويرغب ويصمِّم النيّة» على الاقتداء بالمسيح الفقير والمُهان، فهو يُضيف: «إن أراد جلالُك القدُّوس أن يختارني ويقبلني في مِثل هذه الحياة وهذه الحالة» (رر العدد ٩٨). فالفقر والإهانة، اقتداءً بالمسيح، هما نِعمة خاصّة من الله، يطلبها المتروِّض بإلحاح عندما يُقدِّم ذاته إلى شخص المسيح. ويُكرِّر طلبَ هذه النعمة قبل خوضه «الاختيار» في مسيرة رياضته، فيطلب إلى سيِّدتنا أن تنال له «من ابنها وربِّها **نِعمة قبوله تحت رايته في الفقر الرُّوحيِّ** المُطلق، بل وفي **الفقر الفعليِّ** أيضًا، إن كانت العزّة الإلهيّة تُخدَم به وترضى أن تختارني وتقبلني». وهو يطلب «الأمر عينه إلى الابن، لكي يناله من الآب»، وكذلك «إلى الآب، لكي يُنعم به» (العدد ١٤٧). ويُعيد طلبَ النِّعمة عينها خُصوصًا «إن كان ذلك مُعاكسًا للميل الطبيعيّ»، فيلتمس منه تعالى «الفقر الفعليّ... بإلحاح» (العدد ١٥٧). ويعود الكرّة، فيطلب النِّعمة عينها: «لكي أقتدي بالمسيح ربِّنا وأزداد تمثُّلًا به فعلًا، أريد وأختار فأُفضِّل الفقر مع المسيح الفقير على الغِنى...» (العددان ١٦٧-١٦٨). فالإصرار في طلب هذه النِّعمة والسعي الدؤوب لنيل هذه الفضيلة، اقتداءً بالمسيح، يؤكِّدان مكانة الفقر المرموقة في الروحانيّة الإغناطيّة.

coptic-books.blogspot.com

الفقر كالـ«أُمّ»

تصف «القوانين التأسيسيّة» الفقر وصف «الأُمّ»[1]:

«على الجميع أن **يحبُّوا الفقر حبّهم لأُمّهم**، وأن يحتملوا - عند سُنوح الفُرص - بعض تأثيراته فيهم في حُدود التمييز المُقدّس» (العدد ٢٨٦).

ويُعتَبر حبُّ الفقر حُبًّا بنويًّا على أنّه، مِثل الأمّ والروح القدس.

* **يُنجب الرُّهبان لحياة المسيح**، ذلك بأنّهم يقتدون به فقيرًا روحيًّا وماديًّا، مُتجرِّدًا حُرًّا تجاه جميع الخيرات، للتفرُّغ لحبِّ البشر ولا سيّما الفُقراء منهم.

* **يُوجِّههم ويُرشدهم ويُعلِّمهم الاعتماد على الآب** وعلى عنايته الإلهيّة في حياتهم الفقيرة، بدون أيِّ «تعلُّق غير مُنظَّم» (رر ٢٢) بالماديّات التي يستعملونها في خِدمتهم، بل بتوجيهها نحو ملكوت الآب.

* **يُساندهم ويُقوِّيهم في جميع ظُروف حياتهم وخِدمتهم.**

الفقر «حِصن الحياة الرهبانيّة المنيع»

في «القوانين التأسيسيّة» نصٌّ هو بمثابة **مرجع للفقر** في الرهبانيّة اليسوعيّة:

«**الفقر حِصن الحياة الرهبانيّة المنيع**. فيجب حبُّه والمحافظة على صفاته قدر المستطاع، بعون الله. غير أنّ عدوّ الطبيعة البشريّة يُحاول عادةً أن يُضعف هذا التحصين وهذا الملجأ اللذين أوحى بهما الله ربُّنا إلى المؤسّسات الرهبانيّة لتحتمي

(١) في اللُّغات الأجنبيّة، إنّ لفظ «الفقر» مؤنّث لا مُذكّر.

coptic-books.blogspot.com

بهما من ذلك العدوّ ومن سائر أعداء تقدُّمها في الكمال، فيُظهر عندئذ ما يُفسد النِّظام الذي وضعه المؤسِّسون الأوّلون في تأويلات وبِدَع غير مطابقة للرُّوح الأصليّة» (العدد ٥٥٣).

«الفقر هو بمثابة الحِصن للمؤسّسات الرهبانيّة، فهو **يُحافظ على وضعها ونِظامها ويحميها من أعداء كثيرين**. فلا عجب أن يحاول الشيطان أن يُحطِّم هذا الحِصن بشتّى الوسائل. فمن المُهمّ، لكي نُساعد على استمرار جِسم الرهبانيّة ونُموِّه، أن نطرد بعيدًا جميع أنواع الطمع» (العدد ٨١٦).

فمُمارسة الفقر فعليًّا **علامةُ صحّة جِسم الرهبانيّة**؛ أمّا تراخي الفقر فيها فيُؤدِّي بها حتمًا إلى **الانحطاط**. ويستند إغناطيوس، في حُكمه هذا، إلى تاريخ الرهبانيّات بوجه عامّ، فحالتُها تزدهر أو تتدهور على حسب أمانتها أو خِيانتها للفقر الرهبانيّ؛ فيزدهر أو يتدهور الاقتداء بالمسيح، والحرارة في الثقة بالله، وغِيرة الرُّوح في الخِدمة.

الخاتمة

يخال إلينا، من خِلال هذه القراءة السريعة في تاريخ الرهبانيّة اليسوعيّة وفي نُصوصها التأسيسيّة والمعاصرة، أنّ **الفقر اليسوعيّ** - في مفهوم اليوم - **أمين لجذريّة الفقر الإنجيليّ** بوجه عامّ، **والفقر الإغناطيّ** بوجه خاصّ؛ كما أنّه **مُصغٍ إلى نِداءات العالم المُعاصر**، ولا سيّما إلى الفقر المُدقع المتفشّي في جميع أرجاء المسكونة والذي يُحتِّم مُقاومته بحزم وبروح إنجيليّة محض. فالفقر اليسوعيّ المُعاصر **أمين/مُبدع** في آن: أمين لموهبته الأساسيّة، ومُبدع في الظُّروف الراهنة. فهو أمين في إبداعه، ومُبدع في أمانته.

وما يُلخِّص كلَّ ذلك القرارُ ١٢، في عدده ٤، الوارد في

coptic-books.blogspot.com

المجمع الثاني والثلاثين:

«لم يعُد (نذر) الفقر يعتمد فقط على **الاقتداء بالمسيح** الفقير اقتداءً يتعلّق **بالتقشُّفات والأخلاقيّات**، بل أيضًا وأكثر على ما في الاقتداء بالمسيح من **قِيمة رسوليّة** إذ تَجرَّد المسيح من ذاته ليُصبح كلِّيَّةً سخيًّا وحُرًّا، في سبيل خِدمة جميع المنبوذين».

ويُلخِّص هذا القول فِعلًا كلّ ما توصّلنا إليه في تحليلنا للفقر **كقيمة وشهادة إنجيليّة** من جِهة، **وكموهبة إغناطيّة** من جِهة أُخرى، ولا سيّما

* بُعد نذر الفقر **الكهنوتيّ**: الاقتداء بالمسيح الفقير، وذلك في المنظور الرهبانيّ عُمومًا؛ الاقتداء بالمسيح الباذل حياته في سبيل الفقراء، وذلك في المنظور الإغناطيّ خُصوصًا.

* بُعد نذر الفقر **النبويّ**: التمسُّك بالملكوت ولا المادّيّات والثقة بالله، وذلك في المنظور التقليديّ؛ مُقاومة الفقر ومُناصرة الفُقراء، وذلك في المنظور المُعاصر.

* بُعد نذر الفقر **الملكيّ**: خِدمة الفُقراء، أيّةً كانت نوعيّة هذه الخِدمة، وذلك في المنظور المسيحيّ بعامّة؛ سِمة نذر الفقر الرسوليّة، وذلك في المنظور الإغناطيّ بخاصّة.

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

على سبيل الخاتمة

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

قال الأبّا تادرس:

«إنّ الأعمال الرهبانيّة جميلة، ولكنّ **أعظمها جميعًا هو الفقر الاختياريّ**».

وقال أوريجانيس من جهته:

«**كنز الراهب** هو عدم الاقتناء الطوعيّ».

وقد تغنّى فرنسيس الأسيزيّ بالفقر بعبارات مماثلة:

«**كنز فضيلة الفقر المقدّسة الثمين**

الكنز الذي لا نستحقُّ نحن أن نملكه لأنّه حقًّا

كنز كريم إلهيّ».

وعليه، فإنّ نذر الفقر **أعظم كنز ثمين كريم إلهيّ** لأنّه مبنيٌّ على **الإيمان** بالمسيح، والرغبة في الاقتداء به فقيرًا، خادمًا، متحرِّرًا، متواضعًا، هو الإله السيِّد.

وإنّ نذر الفقر **أعظم كنز ثمين كريم إلهيّ** لأنّه مبنيٌّ على **محبّة** الفقراء، اقتداء بالمسيح الذي أحبّهم حبًّا تفضيليًّا، وبشّرهم هم أوّلًا، وحرّرهم من قيودهم، وبذل ذاته من أجلهم ومن أجل الجميع.

وإنّ نذر الفقر **أعظم كنز ثمين كريم إلهيّ** لأنّه مبنيٌّ على وضع **الرجاء** في الآب وفي ملكوته، اقتداءً بالمسيح الذي وضع ثقته الكاملة في الآب ولا في أيِّ امتلاك، واتّكالَه الكلّيّ في عنايته الأبويّة ولا في أيِّ اقتناء، واعتبر هدفَه الوحيد الملكوتَ ولا أيّ

coptic-books.blogspot.com

ضمان بشريٍّ أو مادِّيّ.

للفقر سُموُّه، فهو حقًّا موقف **الفضائل الإلهيّة الثلاث**: الإيمان والرجاء والمحبّة. وهو حقًّا **أعظم كنز ثمين كريم إلهيٍّ** يرغب فيه ويصبو إليه أيُّ مسيحيٍّ بوجه عامّ، وأيُّ راهب بوجه خاصّ.

coptic-books.blogspot.com

فهرس المحتويات

المُقدِّمة ٥

١ - الدافع: الاقتداء بيسوع المسيح الفقير - البُعد الكهنوتيّ - ٩

يسوع الناصريُّ الفقير ١١

الابن الأزليُّ الفقير ١٦

الفقر وبُعده الكهنوتيّ ١٩

٢ - الهدف: الاهتمام بالفقراء - البُعد المَلكيّ - ٢١

الفقراء في الكتاب المقدّس ٢٣

أوجه الاهتمام بالفقراء المختلفة ٣٠

الفقر وبُعده الملَكيّ ٤٣

٣ - الشرط: التحرُّر من الامتلاك - البُعد النبويّ - ٤٥

ضرورة التحرُّر ٤٧

مضمون التحرُّر ٥٣

الفقر وبُعده النبويّ ٥٦

٤ - الفقر في الرهبانيّة اليسوعيّة ٦١

إغناطيوس الفقير ٦٣

الرهبانيّة الناشئة الفقيرة ٦٧

coptic-books.blogspot.com

الفقر اليسوعيُّ في عالمنا المُعاصر ٧٢
العبارات الإغناطيّة عن الفقر ٧٧
الخاتمة ٨٠
على سبيل الخاتمة ٨٣

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

تصميم الغلاف : جان قرطباوي

الصفّ والإخراج : شركة الطّبع والنّشر اللّبنانيّة
(خليل الديك وأولاده)

الطباعة : مؤسّسة دكّاش للطباعة

٧٣٠ - ١ - ٣١/١/٢٠٠١

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com